

محتوى مقرر الأدب الأندلسي

أستاذ المقرر / د. محمود بن سعود الحليبي

مجهود / غزالة القرشي



المحاضرة الأولى

مقدمة موجزة في تاريخ الأندلس

منذ الفتح حتى السقوط

الاسم والموقع

الأندلس : اسم أطلقه الفاتحون العرب على شبه جزيرة إيبيريا بعد فتحها ، وهي مسماة اليوم أسبانيا والبرتغال .

الموقع : تقع بلاد الأندلس أو شبه جزيرة إيبيريا في الجنوب الغربي من أوروبا ، يحدها شمالاً فرنسا وكان يطلق عليها العرب " بلاد الفرنجة " وجنوباً مضيق جبل طارق وجزء من البحر المتوسط وشرقاً البحر المتوسط ، وغرباً المحيط الأطلسي ، ويفصل بينها وبين فرنسا من الشمال جبال البرنس " البرت "

من أهم مدنها : غرناطة ومرسية وجيان وأشبيلية وقرطبة ومالقة وسرقسطة و برشلونة و طليطلة وبلنسية .

فتح الأندلس

أطلق العرب لفظ الأندلس AL- Andalus على القسم الذي سيطروا عليه من شبه جزيرة إيبيرية (إسبانية والبرتغال) واستقروا فيه زهاء ثمانية قرون (منذ فتحها عام ٩٢هـ / ٧١١م بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، وآخرين، حتى سقوط غرناطة عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م) فجاءوا بلغة حية تأثرت بها اللغتان الإسبانية والبرتغالية، وبمد حضاري حمل عبارة تتصدر معاهد العلم وهي: «العالم يقوم على أربعة أركان : (معرفة الحكيم ، وعدالة العظيم ، وصلاة التقي ، وبسالة الشجاع) .

عصور الحكم في الأندلس

حكم الأندلس مدة ستة وأربعين سنة (٩٢-١٣٨هـ / ٧١١-٧٥٥م) ولاة كان يعينهم الخليفة في دمشق، أو عامله على إفريقية، ولما قوض العباسيون صرح الدولة الأموية، فر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان من الشام في مغامرة طويلة حتى وصل إلى الأندلس سنة ١٣٧هـ / ٧٥٥م، واستطاع بحذقه السياسي أن يؤسس إمارة حاضرتها قرطبة Cordoba استمرت من عام ١٣٨ حتى عام ٣٠٠هـ / ٧٥٦-٩١٢م، ولقب «بالداخل» و«بصقر قریش».

وفي عهد عبد الرحمن الثالث الذي لقب «الناصر» وحكم من سنة ٣٠٠ حتى ٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م، تحولت الإمارة إلى خلافة، وفي هذا الدور بلغت الأندلس أوج مجدها السياسي والأدبي ونافست قرطبة بغداد.

المرابطون والموحدون

(٤٠٣-٥٣٦هـ / منها : الدولة العبادية في إشبيلية، ودولة بني الأفطس في بطليوس، والدولة الجهورية في قرطبة .

ومع انشغال الحكام بشؤونهم عن تدبير الملك، وازدياد ضغط الإسبان الشماليين على هذه الولايات، فرع الأندلسيون إلى يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م) أمير الملتمين (المرابطين) في المغرب، فأوجدهم سنة ٤٧٩هـ بعد انتصاره في معركة الزلاقة، ثم استقل بحكم الأندلس التي تحولت إلى ولاية تابعة للمغرب في زمن المرابطين والموحدين.

هزيمة الموحدين وبوادر السقوط

وبعد هزيمة الموحدين سنة ٦٠٩هـ في موقعة العقاب Las Navas de Tolosa التي جرت مع الإسبان، استطاع الإفرنجية أن يستولوا على الحصون والمدائن ومنها قرطبة التي سقطت سنة ٦٢٣هـ/١٢٣٥م، بعد أن لبثت ٥٢٠ سنة عاصمة الملك. وحُصرت الدولة في مملكة غرناطة التي حكمها بنو نصر (بنو الأحمر)، وشيدوا فيها قصور الحمراء Al- Hembra، وحافظوا على السلطان العربي في الأندلس زهاء قرنين ونصف القرن (٦٣٥-٨٩٧هـ). ثم اتحدت مملكتا قشتالة Castilla، وأرغوان Aragon في مواجهة بني نصر، وسقطت غرناطة، وسلم أبو عبد الله الصغير مفاتيح الحمراء إلى المنتصرين.

جدول فترات الحكم في الأندلس وعصوره

قسم مؤرخو الأدب فترات الحكم في إسبانيا " الأندلس " إلى ثمانية عصور هي :

١ - عصر الولاة من سنة (٩٥٥هـ) إلى سنة (١٣٨هـ)

٢ - عصر الإمارة من سنة (١٣٨هـ) إلى سنة (٣٠٠هـ)

٣ - عصر الخلافة من سنة (٣٠٠هـ) إلى سنة (٣٦٦هـ)

٤ - عصر الحجابة من سنة (٣٦٦هـ) إلى سنة (٤٠٠هـ)

وهذه العصور الأربعة تعتبر عصوراً أموية ، لأن الحكم فيها كان لبني أمية ، مع سقوط حكم الأمويين في المشرق منذ عام ١٣٢ هـ ، وقيام الدولة العباسية هناك .

٥ - عصر ملوك الطوائف من سنة (٤٠٠هـ) إلى سنة (٥٣٦هـ)

٦ - المرابطون بالأندلس من سنة (٤٩٥هـ) إلى سنة (٥٥٥هـ)

٧ - الموحدون بالأندلس من سنة (٥٢٤هـ) إلى سنة (٦٦٧هـ)

٨ - دولة بني الأحمر في غرناطة من سنة (٦٣٥هـ) إلى سنة (٨٩٨هـ)

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الأندلس (١)

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

كان قوام المجتمع الأندلسي في بداية الأمر من الفاتحين العرب والبربر، وقد وحدت بينهم راية الحرب، والدعوة إلى الجهاد. ودخل قسم كبير من أهل البلاد في الإسلام، وتمتع باقي السكان من النصارى واليهود بحياة مطمئنة، ومارسوا شعائرهم الدينية بكل حرية. ويتألف المجتمع الأندلسي من عناصر تمازجت فيما بعد، وهم:

(العرب، والبربر، والموالي، والقوط، والصقالبة).

وكانت الديانة الرئيسية في الأندلس الإسلام، وتعايش المسلمون مع المسيحيين واليهود وفرضوا الجزية عليهما.

ونتيجة للتزاوج بين هذه العناصر الخمسة، وبعد ثلاثة قرون تقريبا ظهرت الشخصية الأندلسية العربية المميزة.

وكان للأندلسيين عناية خاصة باللغة وعلومها وآدابها، إلى جانب الفقه وعلوم الشريعة، وقد استقدم الخلفاء العلماء من المشرق لينقلوا معهم كنوزهم الأدبية فيتأدب بها كثيرون. وكان للفقهاء في الأندلس سلطان عظيم لدى الدولة، ولدى عامة الناس.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الأندلس (٢)

واحتلت المرأة في الأندلس منزلة عظيمة، ونالت حظاً وافراً من التعليم، ونبغت في العلوم والآداب والفنون كثرات: قيل إن مئة وسبعين امرأة بضاحية قرطبة الشرقية كن يعملن يومياً في نقل نسخ من القرآن الكريم بالخط الكوفي، وإن «إشراق العروضية» (القرن الخامس الهجري) كانت تحفظ «الكامل» للمبرد، و«النوادر» للقالبي.

وكان يُعهد إلى النساء بتربية أبناء الأمراء والأغنياء وتأديبهم، فابن حزم تلقى ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه، وهن علّمنه القرآن، وروّينه الأحاديث الشريفة، ودرّبته على الخط.

وكانت الشواعر ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي لوفرتهن ونبوغهن، وقد ارتبط سحر شعر النساء باسم ولادة (ت ٤٨٤هـ) بنت الخليفة المستكفي (ت ٤١٦هـ) فقد غشي منتداها فرسان النظم والنثر، ومنهم ابن زيدون (ت ٤٦٣هـ) الذي نعم بوصولها، وشقي بهجرها، فقال فيها أجمل الغزل وأرقه.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الأندلس (٣)

واختلفت الحياة الاقتصادية في الأندلس، باختلاف العصور بين مد وجزر، فأهل الأندلس كانوا يعيشون في فترات مختلفة في دعة من العيش، لوفرة منتجاتهم الزراعية، غير أنه مرت عليهم فترات غير آمنة، نتيجة للحروب مع المسيحيين، إذ هم على ثغر، ومن هنا ربما تسوء أحياناً حالهم المعيشية والاقتصادية، فنرى كيف أن بلنسية مثلاً تُمّتدح في عصور بأنها دار أمنٍ ورخاء، وتوصف في آونة أخرى بأنها دار بعوض وفقر ووباء.

ومن هنا يمكن القول بأن الحياة الاقتصادية في الأندلس كانت بين صعود وهبوط متأثرة بالحياة السياسية.

أبداع أهل الأندلس في شتى العلوم و الفنون فمن ذلك :

١ . فن الأدب شعرا ونثرا .

٢ . فن الموسيقى و الغناء .

٣ . فن العمارة و الزخرفة .

وكانت بواعث الإبداع :

١ . الطبيعة الخلابة التي امتلأت بالجمال سواء في الخضرة أو الماء أو الطيور أو الحيوانات المختلفة أو الزهور أو الثلوج ، وذلك نتيجة لخصوبة الأرض ووفرة المياه .

٢ . المرأة وجمالها الآخاذ ، إذ كانت المرأة وراء إبداع كثير من الشعراء والكتاب .

٣ . التقلبات السياسية والأوضاع الاقتصادية المتغيرة ، نتيجة الحروب والأزمات.

٤ . الترف الذي كان يعيش فيه أهل الأندلس أحيانا ، مما دفع كثيرا من الأدباء والشعراء إلى ابتكار أجناس أدبية جديدة ، كالموشحات وشعر الزجل .

وإذا كانت الثقافات عادة تنتقل بين الشعوب ، من خلال ثلاثة روافد هي : الحروب ، والهجرات ، والرحلات .

حيث تتم عملية التأثير و التأثر بين الغالب والمغلوب ، فالأقوى ثقافياً ينقل ثقافته إلى الأضعف ، وعلى هذا فقد يغلب مجتمع عسكرياً وثقافياً أو يغلب عسكرياً ويُغلب ثقافياً .

وإذا تأملنا حال المسلمين في الأندلس ، نجد أنهم استطاعوا في سنوات قليلة التغلب على أهل البلاد المفتوحة من الناحيتين العسكرية و

الثقافية ، فصارت لغة البلاد هي العربية ، وديانتهم الإسلام ، وتطبعت عادات السكان الأصليين للأندلس بالطابع العربي في مجملها .

ولعل أبرز من قام برحلة داخل بلاد الأندلس : ابن الخطيب الأندلسي ، وابن الأبار القضاعي .

أما خارج الأندلس : فابن بطوطة وابن جببير ، وابن ماجد ، وابن خلدون ، وكل من هؤلاء الأربعة له كتاب في الرحلة .

ومن أبرز من هاجر من المشرق إلى الأندلس وكان له تأثيره : أبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي ، وابن صاعد البغدادي اللغوي المشهور ،

وزرياب .

المحاضرة الثانية

الأدب الأندلسي ، وسماته الخاصة

أولاً : عوامل تكوين الشخصية الأندلسية العربية المميزة

سبق أن ذكرنا أن العرب فتحوا بلاد الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري ، واستوطنوها زهاء ثمانية قرون ، استطاعوا خلالها أن ينشروا دينهم و لغتهم ، وأن يقيموا فيها مجتمعاً إسلامياً جديداً له سماته الخاصة و طابعه المميز.

ولما كانت الحياة العقلية لأي أمة هي وليدة مجتمعها بكل ما يمثله من بيئة طبيعية وشعب ونظم وتحكم حياته وسلوكه وضروب النشاط الإنساني التي يضطلع بها ، فسوف نحاول هنا التعرف بإيجاز إلى الشخصية الأندلسية العربية ؛ تلك التي تضافرت على صنع حياة فكرية علمية وأدبية لها سماتها المميزة.

ولعل أبرزها : عناصر الشعب الأندلسي التي سادت الأندلس وهي : العرب ، والبربر، والموالي ، والمولدون ، وأهل الذمة من نصارى ويهود .

ولقد امتزجت كل هذه العناصر والأجناس بعضها ببعض امتزاجاً تسرباً في عقولهم كما تسرب في دمائهم ، وبانت لهم نزعة عقلية جديدة ساعد على تكوينها إلى جانب عملية الامتزاج ، بيئة طبيعية غنية ، حافلة بشتى المناظر وصور الجمال ، وكان من أثر ذلك كله أن أصبحت لهم مميزات عقلية خاصة وسمات لهم ولأدبهم الشعري والتثري لم تكن لغيرهم من العرب الخالص .

ثانياً : سمات الشعر الأندلسي الخاصة

كانت البدايات الأولى للشعر في الأندلس محاكاة لشعر المشرق ، ولعل أهم مميزات الشعر في عصر الولاة ما يلي :

- * ليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس .
- * يهتم بجزالة اللفظ وفخامة العبارة ، ولا يرى في معانيه كثير من تعمق الفكر .
- لا يلمح في صورته نصيب من تحليق الأخيلة ، وإنما هو أميل إلى البداوة و أقرب إلى الخشونة .
- ليس فيه تجارب شعرية مستحدثة ، ولا أساليب فنية متميزة ، لأن أصحابه لم يصيبوا بعد من الثقافة و التحضر و التأثير شيئاً من الحياة الجديدة .

وأما في عصر الأمانة :

فإذا كان الشعر في عصر الولاة يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر ومدح وحماسة ، وكان يسير على منهج الأقدمين في بناء القصيدة ، وفي تجميع صورها غالباً من عالم البادية وتأليف أسلوبها في الأعم من لغة تستوحى الذكريات والتراث أكثر مما تستوحى العصر والواقع .

كما كانت الألفاظ جزلة وغريبة و خشنة إلى حد ما ، والبحور أميل إلى البحور الطويلة ذات التفعيلات الكثيرة والقوافي الرنانة ؛ فإنه منذ بدايات عصر الأمانة بدأ الشعر يتجه اتجاهات مختلفة ، نظراً للتطور الحضاري ، فاستحدثت بعض الموضوعات الجديدة ، مثل تصوير محنة فقد البصر ووصف المبتلى بها ، كما في قصيدة أبي المخشبي ، كما تطور أسلوب القصيدة إلى الأسلوب الإيحائي نوعاً ما ، وبدأ ظهور التركيز العاطفي كما في قصيدة (الداخل) في تشبيهه غربته بغربة النخلة ، وما فيها من إسقاط نفسي . وبدأ الشعر يميل في الغالب إلى السلاسة و الرقة وتجنب الغموض والتعقيد والخشونة .

ثالثاً : اتجاهات الشعر الأندلسي

مما يلفت النظر شيوع الشعر في المجتمع الأندلسي، إذ لم يكن الشعر وفقاً على الشعراء المحترفين، وإنما شاركهم في ذلك الأمراء والوزراء والكتاب والفقهاء ، والفلاسفة والأطباء وأهل النحو واللغة وغيرهم، فالمجتمع الأندلسي بسبب تكوينه الثقافي القائم على علوم العربية وآدابها، ثم طبيعة الأندلس التي تستثير العواطف ، وتحرك الخيال، كل ذلك جعل المجتمع يتنفس الشعر طبعاً وكأنما تحول معظم أهله إلى شعراء ، ولذا من الضروري لمعرفة سماته الخاصة أن نتحدث هنا عن اتجاهات الشعر الأندلسي :

اتجاهات الشعر الأندلسي :

اتجه الشعر في الأندلس إلى ثلاثة اتجاهات :

أ- الاتجاه المحافظ

الاتجاه المحافظ : الذي يهتم بالموضوعات التقليدية ويتبع منهج القدماء في بناء القصيدة من حيث الأسلوب البدوي، حيث تحوي ألفاظه جزالة ، وعبارات لا تخلو من خشونة وحوشية ، أما بحوره ؛ فطويلة وقوافيه غنائية ، ويحتذي هذا الاتجاه نماذج المشرق.

أما الغزل فكان يعبر عن الحب الصادق، فلا مجال إلا لفارس عاشق أو عاشق فارس يُذكر بعنترة بن شداد ، ولعل أهل الأندلس كانوا يتمثلون عالم الآباء والأجداد ؛ حيث الصحراء والكثبان والواحات ، وهم في عالم يبعد عن ذلك العالم، وكأنهم يستلهمون العالم المثالي، وعلى الرغم من ذلك كان لهذا الاتجاه سماته الخاصة في الشعر الأندلسي، وقد جعلت تلك السمات لهذا الشعر ذاتية مستقلة وطبعت الملامح الأولى للشعر الأندلسي وميّزته عن الشعر المشرقي .

ومن أشهر شعراء هذا الاتجاه : عبد الرحمن الداخل ، وأبو المخشبي ، والحكم بن هشام ، وغيرهم من شعراء الفترة الباكرة .

ب - الاتجاه المحدث

الاتجاه المحدث : وهو الاتجاه الذي حمل لواءه بالمشرق مسلم بن الوليد وأبو العتاهية وغيرهما من دعاة التجديد الذين ثاروا على الاتجاه المحافظ ، وطرقوا موضوعات جديدة بأسلوب متنوع ؛ خالفوا فيه طريقة القدماء في بناء القصيدة ، وعرفت الأندلس هذا الاتجاه على يد عباس بن ناصح ؛ حيث نقله من المشرق، وتمثل الاتجاه المحدث في الأندلس باهتمامه بأغراض لم تكن قائمة بذاتها في القصيدة من قبل ؛ فظهرت القصائد بأسلوب قصصي لا يخلو من روح الدعابة والسخرية ، أما صورته ؛ فتتألف من عناصر حضرية في لغة يسيرة الألفاظ ، وإيقاع يميل إلى البحور القصيرة والقوافي الرقيقة ، ويعد الشاعر يحيى بن حكيم الغزال من أشهر رواد هذا الاتجاه .

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

الاتجاه المحافظ الجديد : الذي ظهر في المشرق بسبب تطرف الاتجاه المحدث ومن ثم هو محاولة لإعادة الشعر العربي إلى طبيعته وموروثه دون جمود ، أو بداوة ، وقد عمد هذا الاتجاه إلى الإفادة من رقي العقل العربي بما بلغته الثقافة العربية الإسلامية من نهضة واسعة في مجتمع توافرت له أسباب الحضارة ، وكان هذا الاتجاه محافظاً في منهج بناء القصيدة ولغتها وموسيقاها وقيمها وأخلاقها وروحها ، ولكنه مجدد في المضمون وفي معاني الشعر وصوره وأسلوبه ، ويمثل أبو تمام والبحتري والمتنبي دعائم هذا الاتجاه في المشرق ،

وقد عرفت الأندلس هذا الاتجاه على يد نفر من الأندلسيين رحلوا للمشرق وعادوا للأندلس بأشعار البحتري وأبي تمام ، وكانت فترة الخلافة في ذروة نضجها ، إذ كان المجتمع الأندلسي في هذه الفترة قد تجاوز الانبهار بالمستحدثات الحضارية التي بهرت شعراء القرن الثاني وأصبح أكثر استقراراً وتعقلاً ، ومن أعلام هذا الاتجاه ابن عبد ربه وابن هانئ والرمادي وغيرهم .

رابعا : سمات النثر الأندلسي

على الرغم من تأثر الكتاب الأندلسيين بأساليب المشاركة ، وطرائقهم الفنية ، فقد كانت هناك خصائص امتاز بها نثرهم لاسيما الترسل ، فقد اتخذت رسائلهم في بنائها شكلاً فنياً يختلف في بعض جزئياته عن الرسائل المشرقية التي تبدأ في الغالب بالبسملة والتحميد والصلاة على الرسول الكريم ، فصارت تخلو من الاستفتاح المعروف وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه ، وتعظيمه ، أو بالمنظوم ، أو بالدخول في الموضوع مباشرة .

وتنوعت أساليب الإنشاء بتنوع الموضوعات ، إلا أن الكتاب حرصوا على الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأكثروا من استعمال الجمل الدعائية والمعتضة ، وبالغوا في إبراز الصور البيانية ، واهتموا باستعمال المحسنات البديعية ، وارتقوا بأسلوب التعبير ، حتى لتبدو بعض رسائلهم وكأنها شعر منشور كما في رسائل ابن زيدون .

وفي العصور الأخيرة :

تنوعت أساليب الأداء الفني فاتخذت مستويين : أولهما : مستوى الكاتب نفسه : كما في نثر ابن الخطيب المرسل والمسجع ، والثاني : الاختلاف على مستوى الكتاب : وقد سار في اتجاهين يغلب على الأول : الإفراط في الزخرفة اللفظية ، ورائده : إسماعيل ابن الأحمر (ت ٨٠٧هـ) في كتبه « نثير الجمان » و« نثير فرائد الجمان » و« مستودع العلامة » .

ويغلب على الثاني : الميل إلى الأسلوب المرسل ، ويبدو في رسالة القاضي أبي الحسن النباهي التي يعدد فيها معاييب لسان الدين بن الخطيب ، وفي كتاب « الخيل » لعبد الله بن محمد بن جزي ، وقد صدر الكتاب بنبذة عن تاريخ ثمانية من ملوك بني الأحمر ، ثم تحدث عن صفات الخيل وأحوالها .

ومن أبرز أعلام الكتاب في الأندلس : ابن حزم (ت ٤٣٨هـ) ، وابن سيده (ت ٤٥٨هـ) ، وابن زيدون (٤٦٣هـ) . وكذلك ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) ، وابن شهيد (ت ٤٢٦هـ) .

المحاضرة الثالثة

أهم الأغراض الشعرية

أولاً : أغراض الشعر التقليدية

نظم الأندلسيون الشعر في الأغراض التقليدية كالغزل والمجون والزهد والتصوف والمدح والهجاء والثناء، وقد طوروا موضوع الرثاء فأوجدوا «رثاء المدن والممالك الزائلة» وتأثروا بأحداث العصر السياسية فنظموا «شعر الاستغاثة»، وتوسعوا في وصف البيئة الأندلسية، واستحدثوا فن الموشحات والأزجال.

١- الغزل :

كان الغزل من أبرز الفنون التقليدية، يستهل به الشعراء قصائدهم، أو يأتون به مستقلاً، وبحكم الجوار أولاً، وكثرة السبايا ثانياً، شاع التغزل بالنصرانيات، وكثر ذكر الصلبان والرهبان والنسك.

كذلك شاع التشبيب بالشعر الأشقر بدلاً من الشعر الفاحم، وكما أن الشعراء جعلوا المرأة صورة من محاسن الطبيعة. قال المقرئ: «إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن الآس أصداعاً، ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضاباً».

٢- المجون :

ولم يظهر المجون الذي يخلط فيه الجد بالهزل في عهد الدولة الأموية في الأندلس لانشغال الناس بالفتوح، من جهة، ولأن الوازع الديني كان قوياً في النفوس، من جهة ثانية. لكن، منذ عصر ملوك الطوائف حتى نهاية حكم العرب في الأندلس، اتخذ بعضهم المجون مادة شعرهم، وأفرطوا فيه إلى حد الاستهتار بالفرائض .

٣- الزهد :

مع أنه ظهر في القرن الخامس الهجري في ظل دول الطوائف عدد غير قليل من الشعراء الذين نظموا في الزهد، كأبي إسحق الإلبيري (ت ٤٦٠هـ)، وعلي بن إسماعيل القرشي الملقب بالطليطل، والذي كان أهل زمانه (المئة السادسة) يشبهونه بأبي العتاهية.

٤- التصوف :

ولئن كان الزهد دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة، فإن التصوف شطف وخشونة وانعزال عن الخلق في الخلوة إلى العبادة. ويتخذ الشعر الصوفي الرمز أداة للتعبير عن مضمونه وحقائقه. ومن متصوفة الأندلس ابن عربي (ت ٦٣٨هـ) وقد لقب «بمحيي الدين» و«بالشيخ الأكبر» وابن سبعين (ت ٦٦٩هـ) وكان يلقب «بقطب الدين».

٥- المدح :

وفي المدح حافظ الشعراء على الأسلوب القديم، فاعتنوا بالاستهلال وحسن التخلص، وربما بدؤوا قصائدهم بوصف الخمر أو الطبيعة، أو بلوم الزوجة زوجها لسفره للقاء المدوح كما في شعر ابن درّاج القسطلي (ت ٤٢١هـ)، وهم لم يغرقوا في استعمال الغريب ما عدا ابن هانئ (ت ٣٦٢هـ) الذي حاول تقليد المتنبي.

٦- الرثاء :

ولم يختلف رثاء الأندلسيين عن رثاء المشارقة، فكانوا يتفجعون على الميت، ويعظمون المصيبة، وكثيراً ما كانوا يبذرون بالحكمة صنيع ابن عبد ربه (ت ٣٢٨م).

ثانياً : الأغراض الشعرية المتطورة

لقد قال الأندلسيون شعراً في أغراض الشعر التقليدية المعروفة كما مر بنا بعضها آنفاً : كالغزل والمديح والرثاء والحكمة والهجاء والزهد والاستعطاف والتصوف والمجون وغيرها من الأغراض التقليدية .

غير أن أهل الأندلس وسعوا القول في غرضين من أغراض الشعر هما :

أ- وصف الطبيعة ، ونموذجه (ابن خفاجة الأندلسي) .

ب - رثاء المدن والممالك ، و نموذجه (أبو البقاء الرندي) .

واستحدثوا على الأرجح غرضين هما :

أ- شعر الاستغاثة ، ونموذجه (ابن الأَبَّار الأندلسي) .

ب- الشعر التعليمي ، ونموذجه (ابن مالك) .

بعض الفنون المستحدثة :

واستحدث أهل الأندلس فنين من فنون الشعر ، هما :

أ- الموشحات : وهي فن شعري خاص عمل للغناء في بدايته ، وكان في بدايته مقتصراً على غرض الغزل ، ثم كتبت الموشحات في أغراض أخرى ، واشتهر به كثير من الوشاحين أمثال (عبادة ابن ماء السماء ، الأعمى التطيلي ، ابن القزاز ، ابن بقي ، أبوبكر ابن زهر ، ابن سهل ، ابن الخطيب الأندلسي) .

ب- فن الزجل : وهو أيضاً من فنون الشعر الأندلسي المستحدثة كالموشحات وهو فن للغناء أيضاً ، غير أنه يعتمد في لغته على اللغة الدارجة نسبياً (اللهجة العامية) ، وقد يطعم ببعض الألفاظ الأجنبية واشتهر به (ابن راشد ، وابن قزمان) وغيرهما ...

وصف الطبيعة

ألهمت طبيعة الأندلس الجميلة قرائح الشعراء، فرسموا لوحات شعرية متنوعة أودعوها أخيلتهم وعواطفهم.

رأى عبدالرحمن الداخل نخلة بالرصافة(شمالي قرطبة)، فلم يصفها في طولها ولا في التفافها ولا في ثمرها، وإنما عقد بينه وبينها شبهاً في النوى والبعد عن الأهل.

ووصف ابن عبد ربه الطبيعة بمعناها العام المتمثل في الرياض وأزهارها فخلع على صياغته من نفسه ومهارته ما جعلها مصورة البيئة الأندلسية أدق تصوير وأحلاه.

وقد ردد ابن حمديس (ت ٥٢٧هـ) أصوات القدماء في الطبيعة كما ردد أصوات المحدثين، ووصف الخيل والإبل والغيث والبرق، وأقحم عبارات امرئ القيس، ثم حاكى أبا نواس في الدعوة إلى نبذ الوقوف على الأطلال، ودعا إلى الشراب، وكثيراً ما وصف ترحاله وتغربه عن صقلية التي أبعد عنها وهو حدث (٤٧١هـ) لما غزاها النورمان.

لقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال الطبيعة الأندلسية، فابن سفر المريني يتعلق بالأندلس فيراها روضة الدنيا وما سواها صحراء، وابن خفاجة الذي لقب «بالجنان» و«بصنوبري الأندلس» يشبهها بالجنة فيقول:

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيرت هذي كنت أختار

ووصف شعراء الأندلس أقاليم الأندلس وربوعها وصفاً دقيقاً، فحمدة بنت زياد (من شواعر القرن الخامس الهجري) تصف وادي آس القريب من غرناطة فترسم له أكثر من صورة متحركة.

وبدافع من التطور الحضاري أدخل الأندلسيون إلى قصورهم المنبوعة الماء ليملاً البرك في باحاتها، ولينتشر من أفواه التماثيل كما في وصف ابن حمديس بركة في قصر المتوكل بن أعلى الناس بإفريقية.

أما وصف مجالس الأندلس : فقد بدأ ظاهرة اجتماعية في أخريات الدولة الأموية في الأندلس، ثم أخذت المجالس بالانتشار والشيوع ويغلب على هذا الشعر الارتجال، وفيه وصف للساقى والخمر.

كذلك رأى الشعراء الأندلسيون في المرأة صورة من محاسن الطبيعة، وقد ألح ابن زيدون في ديوانه على ثنائية ولادة والطبيعة.

وفي بعض أشعارهم ميل إلى النزعة القصصية، ومن ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي (ت ٣٧٢هـ) في سفرجلة تتبّع وصفها مذ كانت تختال على شجرتها إلى أن ذبلت في كف الشاعر.

ويغلب على الوصف في الشعر الأندلسي : التشبيهات والاستعارات ويمثل لها بشعر ابن سهل (ت ٦٤٩هـ) ، فقد صور الشاعر الطبيعة فأحسن المزج بين الألوان ، وجمع بين الحس المرهف ، والملاحظة الدقيقة .

شعر الاستغاثة

مما استحدثه الأندلسيون من أغراض الشعر شعر الاستغاثة ؛ ويقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب والمسلمين لنجدة إخوانهم في الأندلس أو التصدي للاجتياح الإسباني .

وقد أورد المقرئ في نفح الطيب قصيدة ابن الأَبَّار (ت ٦٥٨هـ) التي استغاث فيها بسلطان تونس أبي زكريا الحفصي سنة ٦٣٦هـ ومطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * إن السبيل إلى منجاتها درسا

فاستوعبت معظم الاتجاهات والمعاني التي أتى بها شعراء الاستغاثة .

الشعر التعليمي

يراد بالشعر التعليمي الأراجيز والمنظومات التاريخية والعلمية ، وهو لا يلتقي مع الشعر الفني الذي يغلب عليه عنصرا الخيال والعاطفة إلا في صفة النظم ، ويستقل في الرجز كل شطر بقافية .

فمن الأراجيز التاريخية :

* أرجوزة يحيى ابن حكم الغزال (ت ٢٥٠هـ) شاعر عبد الرحمن الثاني (الأوسط) وهي في فتح الأندلس .

* وأرجوزة تمام بن عامر بن علقمة (ت ٢٨٣هـ) في فتح الأندلس وتسمية ولائها والخلفاء فيها ووصف حروبها .

* وأرجوزة ابن عبد ربه في مغازي عبد الرحمن الثالث .

* وأرجوزة أبي طالب عبد الجبَّار (القرن الخامس الهجري) وكان مواطنوه يلقبونه بالمتنبي وقد قصر شعره على الوصف والحرب والتاريخ .

* وأرجوزة لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) «رقم الحلل في نظم الدول» وهو تاريخ شعري للدولة الإسلامية في المشرق والأندلس . ويلي كل قصيدة شرحها .

ومن الأراجيز العلمية :

أرجوزة ابن عبد ربه : في (العروض) ، وأرجوزة الشاطبي (ت ٥٩٠هـ) في القراءات وعنوانها «حز الأمانى» ، وألفية ابن مالك (ت بدمشق سنة ٦٧٢هـ) في النحو ، وأرجوزة لسان الدين بن الخطيب المسماة «المعمدة» في الأغذية المفردة ، وأرجوزة أبي بكر محمد ابن عاصم (٨٢٩هـ) في القضاء وعنوانها «تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام» ، ومنظومة حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) في النحو ، وبديعية ابن جابر الأندلسي الضرير (ت ٧٨٠هـ) التي نظمها في مدح الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ، وضمنها نحو ستين فناً بديعياً ، وسماها «الحلة السيرا في مدح خير الورى» .

رثاء المدن والممالك الزائلة

أولاً : تعريف رثاء المدن وظهوره في المشرق العربي

تعريف رثاء المدن :

عرف الأدب العربي رثاء المدن وظهوره في المشرق العربي في شعره ونثره. وهو لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة.

وهذا النوع من الرثاء لا يقف في حدود رثاء المدن وحدها حين يصيبها الدمار والتخريب ولكنه يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك تارة والعصور تارة أخرى. بل قد يرثي الدولة بأسرها؛ كما حدث ذلك في الأندلس. وقد تميز هذا الغرض من رثاء المدن في الشعر أكثر من تميزه في النثر. ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثّة، ذلك أن الشاعر الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى آخر، وإذا ألمّ بمدن المناذرة والغساسنة فهو إمام عابر. ولعل بكاء الشاعر الجاهلي على الربيع الدارس والطلل الماحل هو لون من هذه العاطفة المعبرة عن درس المكان وخرابه.

ولقد عرف المشرق قدرا من هذا الرثاء شعراً، عندما تعرضت عاصمة الخلافة العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون. فنهبت بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السّفلة والأوباش مناحاً صالحاً ليعيثوا فيها فسادا ودمارا. وقد عبر الشاعر أبو يعقوب إسحاق الخريمي، وهو شاعر حامل الذكر، عن هذه التّكبة في مرثيته لبغداد فقال :

يا بؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها
حلّت ببغداد وهي آمنة داهية لم تكن تحاذرها

أ - رثاء المدن في الأندلس

هذا اللون في المشرق لم يزدهر ازدهاره في الأندلس، ويعزى ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعاً، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين تجمّع الصليبيون عازمين على طرد المسلمين وإخراجهم من الأندلس.

كان هذا الغرض في الأندلس من أهم الأغراض الشعرية، إذ كان مواكباً لحركة الإيقاع السياسي راصداً لأحداثه مستبطناً دواخله ومقوماً لاتجاهاته.

وكان محوره الأول يدور حول سلبيات المجتمع الأندلسي بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة اللهو والترف والمجون وانصراف عن الجهاد. وأن الأمر لن يستقيم إلا برفع علم الجهاد تحت راية

لا إله إلا الله. ومن هنا فالصوت الشعري لرتاء المدن في الأندلس يخالف الأصوات الشعرية الأندلسية الأخرى التي ألفها أهل الأندلس في الموشحات ، ووصف الطبيعة والغزل ، وبقية الأغراض الأخرى.

ويلفت النظر إلى أن عددا من قصائد رثاء المدن في الأندلس لشعراء مجهولين ؛ ويُفسَّر ذلك إما بخشيتهم من السلطان القائم بسبب نقدهم للأوضاع السياسية ، وإما أن عنايتهم بالحس الجماعي واستثارته كانت أكثر من عنايتهم بذواتهم الشاعرة.

ويقوم هذا الرثاء على مقارنة بين الماضي والحاضر؛ ماضي الإسلام في مجده وعزه، وحاضره في ذله وهوانه. فالمساجد غدت كنائس وبيعاً للنصارى ، وصوت النواقيس أضحى يجلجل بدلا من الأذان، والفقيتات المسلمات انتهكت أعراضهن، والدويلات المسلمة تستعين بالنصارى في تدعيم حكمها. وتمتلئ كل هذه النصوص بشعور ديني عميق يطفح بالحسرة والندم.

ونعرض هنا شيئا من نماذجه في رثاء بعض مدن الأندلس :

١ - رثاء طليطلة

كان سقوط مدينة طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بداية المأساة؛ فهي أول بلد إسلامي يدخله الفرنجة وكان ذلك مصابا جلا هزَّ النفوس هزًّا عميقاً. يقول شاعر مجهول يرثي طليطلة في قصيدة مطلعها: (حفظ مالا يقل عن ثلاثة أبيات)

لثُكِّكِ كيف تبتسم الثغور سروراً بعدما سببت ثغور

طليطلةً أباح الكفر منها حماها إنَّ ذا نبأ كبير

وفي هذه القصيدة التي بلغت سبعين بيتا تصوير لحال المسلمين عشية سقوطها وما أصابهم من ذل وصغار، كما تصور ماضيها المجيد وحاضرها المهين. وتنتهي بأمنية مشتتة أن يخرج من أصلاب المسلمين بطلٌ كطارق بن زياد يعيد الأمر إلى نصابه :

ألم تك معقلا للدين صعبا ؟ فذلُّهُ كما شاء القدير

وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير

وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنيـر

مساجدها كنائس ، أي قلب على هذا يقَرُّ ولا يطير

فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يُكرِّرُ ما تكررت الدهور

ثم تختم المرثية بهذه الأمنية :

ألا رجل له رأي أصيل به ممَّا نحاذر نستجير

يكرُّ إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولت كروور

ويطعن بالقتا الخطار حتى يقول الرمحُ من هذا الخطير ؟

٢- رثاء بلنسية

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

وتعد مرثية الشاعر ابن الأبار لمدينة بلنسية من المراثي المشهورة في الأندلس، فقد أرسل بها على لسان أميره إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدا به لنصرة الأندلس ومطلعها : (حفظ ما لا يقل عن ثلاثة أبيات)

أدرك بخيلك خيلَ الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التُمتست فلم يزل منك عزّ النصر مُلتَمسا

ويحكي هذا النص يأس أهل الأندلس من حكامهم المسلمين ومن ثم توجهوا لطلب النصرة من خارج الأندلس كما تُصور حال بلنسية وقد تحولت المساجد إلى كنائس ، وفرض الكُفْر سلطانه على الجزيرة ، وأن الذي أصاب بلنسية يوشك أن يصيب باقي المدن الأندلسية :

مدائنُ حلها الإِشراك مبتسما جدلانَ وارتحل الإِيمان مبتئسا

يا للمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا

ثم يلتفت إلى أبي زكريا سلطان تونس قائلا :

طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطي رأسا كل من رأسا

واملا هنيئا لك التأييد ساحتها جردا سلاهب أو خطيبة دُعسا

ب- رثاء الممالك

وأما مراثي الممالك فمن أشهرها : مرثية أبي محمد عبد المجيد بن عبدون التي رثى بها قتلى بني الأفطس أصحاب بطليوس ومطلعها : (البيتان للحفظ)

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور ؟

وفيها يقول :

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر !

وفي هذه المرثية يحشد ابن عبدون كثيرا من أحداث التاريخ وتقلباته ، ويحكي ما أصاب الدول والممالك من مأسٍ ومحن متخذًا من ذلك سبيلا للعظة والتأسي. وتمتاز القصيدة على طولها بحاسة شعرية قوية وعاطفة جياشة تزوج بين مأساة بني الأفطس الذاتية والسياسية.

ومن أهم المراثي التي ربطت بين المأساة الذاتية والسياسية قصيدة أبي بكر بن عبد الصمد في رثاء مملكة إشبيلية وأميرها الشاعر المعتمد بن عباد

: (٣ أبيات للحفظ)

مَلِكُ الملوك أسمعُ فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

لما خَلْتُ منك القصورُ ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد

قد كنتُ أحسبُ أن تُبددَ أدمعي نيرانُ حزنٍ أُضرمْتُ بفؤادي

وتعد أيضا دالية ابن اللبانة في رثاء بني عبّاد ومملكتهم من تلك المراثي التي ربطت بين مأساة المعتمد وضياع ملكه ومأساة الشاعر حين هوى عن عرش الشعر ومملكته : (٣ أبيات للحفظ)

تبكي السماء بدمع رائحٍ غادي على البهاليل من أبناء عبّاد
على الجبال التي هُدّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
نسيّتُ إلا غداةَ النهر كونهم في المنشآت كأمواتٍ بألحاد
تفرقوا جيرةً من بعد ما نشأوا أهلاً بأهل ، وأولاداً بأولاد

نونية أبي البقاء الرندي

وأما نونية أبي البقاء الرندي فهي واسطة العقد في شعر رثاء المدن ، وأكثر نصوصه شهرة وأشدها تعبيراً عن الواقع .

فهي ترثي الأندلس في مجموعها مدنا وممالك ؛ حيث تصور ما حلّ بالأندلس من خطوب جلييلة لا عزاء فيها ولا تأسٍ دونها وكيف ضاعت قرطبة دار العلوم ، وإشبيلية مهد الفن ، وكيف سقطت أركان الأندلس واحدة تلو الأخرى ، وكيف أفقرت الديار من الإسلام فصارت المساجد كنائس وغدا صوت الأذان صوت ناقوس؟! ، ثم يهيب أبو البقاء الرندي بفرسان المسلمين عبر عدوة البحر إلى المسارعة لنجدة الأندلس والمسلمين . يقول في أول القصيدة : (يحفظ من القصيدة مالا يقل عن خمسة أبيات)

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُعْرُ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حلّ بالإسلام سلوان

إلى أن يقول :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيّان ؟
وأين قرطبة دار العلوم ، فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض ومالآن
قواعد كُنْ أركانَ البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبقَ أركان

حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما فيهن إلا نواقيسُ وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان

وتختتم القصيدة بنغمة حزينة شجية تسفر عن الأسي العميق والتماس العظة والعبرة فيما حل بالأندلس :

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان !

وأهمية رثاء المدن :

تكمُن في أنه يكشف عن جوانب ثرية من التاريخ السياسي بين المسلمين والنصارى في الأندلس.

كما يكشف جانبا من النقد الذاتي الذي واجه به الأندلسيون أنفسهم حين أدركوا أن الانغماس في حياة اللهو والترف أدى إلى سقوط راية الجهاد، وأن ملوك الطوائف حين حرصوا على ملكهم الفردي أضعوا ملكاً أعظم . وما أصدق سخرية الشاعر المصحفي حين قال :

مما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتضدٍ فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

المحاضرة الخامسة

أهم أغراض النثر الأندلسي

فنون النثر الفني في الأندلس كثيرة ، ولقد تبلورت في العصور الأندلسية المتأخرة ويمكن تقسيمها إلى :

١- فن التراجم :

الترجمة : هي الحديث عن حياة الأعلام البارزين وهي فن نثري عرف بدايةً عند أهل الحديث ، وتختلف الترجمة من مترجم إلى آخر

فئمة من يهتم بنسب المترجم له وميلاده ووفاته ، وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته ، وغير ذلك بحسب هدف المترجم .

وقد ظهرت لدى المسلمين كثير من الكتب الخاصة بهذا الفن ككتب الطبقات ، أو الوفيات ، أو السير . والترجمة تقترب كثيرا من التاريخ

، ولكن ما نعنيه هو التراجم الأدبية .

وقد عرف هذا الفن في الأندلس ، ومن نماذجه : (الغصون الليانة في شعراء المئة السابعة) ،

و (المقتبس من أنباء أبناء الأندلس) والذي كان مقدمة لسلسلة من الكتب في بابه مثل : (جذوة المقتبس) ،

و (الصلة) ، و (صلة الصلة) ، و (الذيل والتكملة) ، وكتاب (التكملة) ، و(عائد الصلة).

ويدخل في فن التراجم الترجمة الذاتية ، ومن نماذجها في الأندلس : ترجمة ابن الخطيب لنفسه ولوالده في (الإحاطة) ، وترجمة ابن الأبار لوالده ولنفسه في (التكملة) .

٢- فن الترسل (الرسائل الأدبية) :

وتنقسم إلى :

أ- الرسائل السلطانية : وهي تلك التي تكتب بشكل رسمي وتصدر عن دار الحكم موجهة إلى حاكمٍ آخر ، أو إلى الوزراء أو إلى العمال (الأمراء) ، أو إلى عامة الناس ، وتسمى بالديوانية .

ب- الإخوانية : وهي التي يتبادلها الأدباء فيما بينهم .

ج- الأدبية الخالصة وهي التي تتحدث في شأن عام أو خاص .

ويمكن إطلاق لفظ الأدبية على كافة المراسلات التي تأخذ شكلاً أدبياً ، وترقى بموضوعها إلى درجة العمومية .

ويمكن أن يدخل في هذا النوع المناظرات والمحاورات التي كانت تتم بين الكتّاب .

ومن نماذج فن الترسل في الأندلس :

الرسالة الهزلية والرسالة الجديدة لابن زيدون ، ورسائل ابن الخطيب الأندلسي المجموعة في كتابه (ريحانة الكتّاب) ورسائل ابن برد الأصغر ، ورسائل ابن أبي الخصال ، وحبیب الحميري ، وأبي عمر الباجي ، وغيرهم .

٣- كتب النقد الأدبي :

ومن أشهرها : (كتاب التواضع والزواجع) لابن شهيد الأندلسي وهو كتاب في نقد الشعراء ، وقد بناه على فكرة أن لكل شاعرٍ تابعاً من الجن يلهمه شعراً أو يساعده في نظمه وهي فكرة قديمة وجدت في البداية لدى أبي زيد القرشي في كتاب (جمهرة أشعار العرب) وهو من كتب المشاركة في العصر العباسي .

٤- فن المقامات :

وهو فنٌ قصصي ظهر في المشرق بدايةً عند بديع الزمان الهمذاني ، ثم الحريري ، وقد وجد هذا الفن في الأندلس وتطور شيئاً فشيئاً حتى اقترب من شكل الرسالة ، ومن نماذجه :

(مقامات السرقسطي) ، و (مقامات النباهي) ، (مقامات ابن الخطيب الأندلسي) .

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

أشهر رحالتين في التاريخ العربي هما : (ابن بطوطة ، وابن جبير) .

وكلاهما من رجال الأندلس ، وقد سجلا ما لقياه في رحلتيهما في كتابيهما المشهورين (رحلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير) .

ولقد كتب غيرهم كتباً مشابهة لهذين ؛ تحدثوا فيها عن رحلاتهم ، ولكنها لم تشتهر شهرة هذين الكتابين ، ومن ذلك : رحلة ابن خلدون الأديب و المؤرخ المعروف ، ومؤسس علم الاجتماع .

٦- نثر الدراسات (النثر التأليفي) :

وهي تلك الكتب التي كتبت بأسلوب أدبي في موضوعات تاريخية ، أو اجتماعية أو جغرافية ، وجعلها أصحابها على أبواب و فصول .

وهي كثيرة جداً ومن نماذجها : العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، وقلائد العقيان للفتح ابن خاقان الأندلسي ، والمغرب لابن سعيد

الأندلسي ، وكتاب العبر ،

و ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون وغيرها ...

٧- التاريخ :

والتاريخ : في أصله علم ، يقوم على رصد الحقائق التاريخية ، وهو أقرب العلوم إلى الأدب ، وبخاصة إذا ما صيغ صياغة أدبية .

ونجد بعض كتب التاريخ التي دُبجت في الأندلس ، تتخذ الصيغ الأدبية ، ويمزج المؤرخون الأدب مع التاريخ ، إذ يركزون على الجانب

الأدبي أحياناً لبعض الشخصيات التاريخية ، وقد يورد شيئاً من النماذج الشعرية أو النثرية ، ومن نماذج ذلك في التراث الأندلسي الإسلامي :

((كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)) لابن بسام الشنتمري .

٨- الخطابة :

عُرُفت الخطابة عند العرب قبل الإسلام ، وارتقت كثيراً بعد الإسلام على يد خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي جعلها على

ثلاثة أجزاء : مقدمة ثم موضوع ثم خاتمة ، وتسمي العرب الخطبة إذا لم تفتتح بالتحميد بالبراء ، والخطبة الخالية من الاقتباسات النبوية أو

القرآنية بالشوواء .

ويمكن تقسيم الخطبة إلى ثلاثة أنواع من حيث موضوعها ، هي :

* الخطبة السياسية .

* الخطبة الدينية .

والخطبة الأدبية : هي التي تمتاز بأسلوبها الأدبي الذي يغلب عليه انتقاء الألفاظ واختيار الجمل والعبارات بعناية ، والمزاوجة بين الأساليب الإنشائية والخبرية ، والمراوحة بين الشعر والنثر .

وقد عرفت الخطابة في الأندلس منذ فتحها ، ونشير إلى النص الخطابي المشهور المنسوب إلى طارق بن زياد ، وتمتلى كتب التراث الأندلسي بنصوص خطابية كثيرة ، كما نجد في كتابي المقرّي (نوح الطيب) و (أزهار الرياض) .

٩- النثر الصوفي :

الصوفية : مختلف في نسبتها فمنهم من يعزوها للبس الصوف ، وهناك من ينسبها لأهل الصفة .

والمتصوفة منهم غلاة ومنهم معتدلة ، ومن أسوأ ما يعتقده الكثير من المتصوفة (عقيدة الحلول والاتحاد) ،

و(عقيدة وحدة الخلق) ، وكثير من الفكر الصوفي فيه خزعبلات وخليط من الأديان المختلفة ؛ إذ فيه من الهندوسية ، والنصرانية ، واليهودية ، وقرأ إن شئت كتاب (هذه هي الصوفية) لعبد الرحمن وكيل ؛ لتتعرف على التصوف أكثر .

ونقصد بالنثر الصوفي الذي عرف في الأندلس : الإشارة إلى بعض الكتب التي تحدثت حول فلسفة الحب ، مثل كتاب :

(روضة التعريف بالحب الشريف) لابن الخطيب الأندلسي ، وهو كتاب حول المفهوم الحقيقي للحب الإلهي النقي .

ويدخل في هذا النوع من الكتب ، الكتب التي تحدثت عن فلسفة الحب البشري مثل كتاب : (طوق الحمامة في الإلف و الألف) لابن حزم الظاهري .

المحاضرة السادسة...

من فنون النثر الأندلسي :

فن الترسل (الرسائل)

أولاً : فن الترسل (الرسائل)

أما عن هذا الفن في بلاد الأندلس ، فقد ارتفع شأن الرسائل التي ساعد على ظهورها بكثرة وانتشارها ، كما ساعد على قيامها وتعزيزها اهتمام الوزراء والأمراء بها ، فاستقل فن الرسائل عن الكتابة الديوانية ، وعالج موضوعات من الحياة ، واعتمد الخيال في ابتكار الصور ، وكان هذا الفن في عهده الأول مطبوعاً لا يلتزم السجع إلا ما تقتضيه البلاغة ، كما هي الحال في رسائل ابن زيدون ، وابن شهيد ، وبعض رسائل ابن حزم .

ثم صار إلى تكلف السجع ، والتزيين ، وتقلب الجمل على المعنى الواحد ، والإكثار من الأدعية والأمثال ، والشواهد الشعرية كما في رسائل ابن برد الأصغر ، وقويت موجة التنميق في المرحلة الأولى فغلبت الصنعة ، وكثر التكلف ، وغدا النثر في فن الرسائل عباراتٍ مرصوفة ومعاني جافة وصورًا مسجوعة كما في رسائل " (لسان الدين بن الخطيب).

والرسائل من حيث غايتها في الحضارة الأندلسية قسمان :

قسم فكري : يعالج القضايا الاجتماعية والعقلية والنفسية من دون الاهتمام الزائد بوجوه البيان كرسائل "ابن باجة" الفلسفية ، وقسم بياني : يهدف إلى إظهار البراعة الأسلوبية كرسالة (ابن برد الأصغر) في السيف والقلم ، ورسائل "ابن حسادي" في الزهريات.

وقد اهتم كُتّاب الرسائل الأندلسيون بوصف الرحلات إلى المدن والبلاطات كما هو الحال عند "أبي عبد الله محمد بن مسلم الذي ترك رسالة (طي المراحل) وفيها يطرق أبواب المدن ويصور كيف حملته الأسفار المرهقة إلى ارتياد المناطق الطوال خلال سنوات عديدة خاض فيها أهوالاً جمّة ، وصعوبات كثيرة ومسالك وعرة ، فكانت تلك الرحلات المدونة في الورق من أصعب ما مر به " ابن مسلم " في مراحل عمره.

شروط كتابة الرسائل :

وللأندلسيين - كغيرهم من الشعوب - شروط لكتابة الرسائل لم يتعدها غالبهم ، فإذا كان المراد بالمراسلات " التعبير عن العواطف والميول وسائر الأحوال ، وهذه تختلف في الناس باختلاف آدابهم الاجتماعية ، وأحوالهم الأدبية وهي تتغير بتغيير الأحوال كان الترسل أكثر تعرضاً للتغيير في أسلوبه وعبارته.

ونبع جماعة من أصحاب القرائح تعاونوا على ذلك حتى صار للإنشاء في هذا العصر طريقة اتخذها أهل العصور التالية نموذجاً نسجوا على منواله ، وهي الطريقة المدرسية في اصطلاح الغرب ، وبعبارة أخرى إن الطريقة المدرسية للترسل العربي نضجت في هذا العصر كما نضج الإنشاء الروماني في عصر "شيشرون" ثم أخذ في التقهقر. وللطريقة المدرسية في الإنشاء العربي شروط أهمها :

١- السجع : بحيث أصبح التسجيع شرطاً من شروط الترسل ، وهو ثمرة من ثمار التألق لما يقتضيه من العناية في إتقانه ، فالرسالة المسجعة يظهر فيها التألق أكثر من غير المسجعة والسجع إذا أتقنت صياغته أكسب المعنى قوة.

٢- الجناس والبديع : وقد أكثر المترسلون الأندلسيون من الجناس ، وهو من قبيل الترصيع للأواني أو الوشي للثياب ، والجناس والبديع لا يزيد العبارة معنى لكنه يكسبها رونقاً ، لاسيما مع السجع.

٣- الإكثار من الخيال الشعري حتى أصبح سجعهم كالشعر المنثور لكنه مقفى فلا يعوزه غير الوزن ليصير شعراً يتغنى به ، وينشر في الأعياد والأفراح ، والمناسبات الأخرى.

٤- كثرة تضمين مراسلاتهم الأمثال والنكت الأدبية ، أو العبارات التاريخية أو العلمية التي تحتاج إلى شرح لغرابة لفظها ، أو لتعقيد حبكها ، وعمق مرادها.

٥- أكثروا فيه من الاستشهاد بالأشعار في أثناء مراسلاتهم ، وهو ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة ، ووضوحا ويكسبه قوة على إبداء ما في خاطر الكاتب.

٦- صار للرسائل نمط خاص : فالرسالة تبدأ غالبا بمخاطبة المرسل إليه بلقبه أو نعتة بعد الإشارة إلى كتابه ، وقد يأتي اللقب مشفوعا بالدعاء بصيغة الغائب ، وقد يجعلون الخطاب بصيغة الغائب ، وقد يجعلون الخطاب بصيغة المخاطب في بعض الأحوال.

٧- تفرّع الترسُّل إلى أبواب كما تفرع الشعر ، فصارت الرسائل تقسم : إلى رسائل للتهنئة ، والتعزية والمديح ، والرثاء ، وإلى الأخوانيات والسلطانيات ونحو ذلك.

٨- امتازت مقدماتهم بتقديم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وتختتم بآية يحسن الختام بها ، أو بالسلام ونحو ذلك من الخواتيم الحسنة .

من هذه الرسائل : رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس وأهلها :

وقد كتب ابن حزم هذه الرسالة دفاعا عن "الأندلس" في مواجهة "المشاركة" ، وقد كان السبب في كتابتها : أن ابن الريب الحسن بن محمد القيرواني قد أرسل رسالة إلى أبي المغيرة عبد الوهاب ابن عم ابن حزم يعيب فيها على أهل الأندلس تقصيرهم في تخليد علماءهم ومآثر فضائلهم ، وقد اتخذ ابن حزم الأساس الفكري وسيلة للتفضيل ، دون أن ينسى أن يضيف إلى ذلك خصائص قرطبة ، وما قدمته الأندلس- بعامه - من نتاج علمي.

فالرسالة بهذا جزء من التاريخ الحضاري للأندلس. وقد كانت رائدة في الأندلس لفن المفاخرات وهو فن أبرز شعور الأندلسيين بالحب

لوطنهم ، وعلى خطى رسالة ابن حزم هذه جاءت رسالة ابن سعيد الأندلسي التي تمثل تذييلا لرسالة ابن حزم ، ثم أتت بعدها بقرنين رسالة إسماعيل بن محمد الشقندي المتوفى سنة ٦٢٩هـ ، فكانت تطورا جديدا في هذا الفن التاريخي.

واليك جزء منها :

((الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بالأندلس أن يتكلم ملء فيه ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يثنيه ، إذ لا يقال للنهار يا مظلم ولا لوجه النعيم يا قبيح ، وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قاتلا فقل . أحمده على أن جعلني ممن أنشأته وحباني بأن كنت ممن أظهرته فامتد في الفخر باعي وأعانني على الفضل كرم طباعي وأصلي على سيدنا محمد نبيه الكريم وعلى آله وصحبه الأكرمين وأسلم تسليمًا . أما بعد فإنه حرك مني ساكنا وملأ مني فارغا فخرجت عن سجيّتي في الإغضاء مُكرِّها إلى الحمية والإباء منازعُ في فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع ويأتي بما لم تقبله النواظر والأسماع إذ من رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ولا يضلّه من تاه في تلك المسالك رام أن يفضّل برّ العدو على بر الأندلس فرام أن يفضّل على اليمين اليسار ويقول : الليل أضوأ من النهار فيا عجباً كيف قابل العوالي بالزجاج وصادم الصفاة بالزجاج فيا من نفخ في غير ضرم ورام صيد البزاة بالرخم ، كيف تتكثر بما جعله الله قليلا وتتعرّز بما حكم الله أن يكون ذليلا ؟

تُبدى أمام الفتاة العجوز ، سل العيون إلى وجه من تميل واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغي : (لشتان ما بين البيزيدين في الندى * * يزيد سليم والأغر بن حاتم) . اقرن حياءك أيها المغرد بالنحيب المتزين بالخلق المتحبيب إلى الغواني بالمشيب الخضيب ، أين عزب عقلك وكيف نكص على عقبه فهمك ولُبُّك ؟ أبلغت العصبية من قلبك أن تطمس على نُورِي بصرك ولبيك . أما قولك الملوك منا فقد كان الملوك منا أيضا وما نحن إلا كما

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

قال الشاعر : (فيوم علينا ويوم لنا * * ويوم نُسأُ ويوم نسر) . إن كان الآن كرسي جميع بلاد الغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن أدامها الله تعالى فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول فيهم مشرقِيهم : (وإني من قوم كرام أعزة * * لأقدامهم صيغت رؤس المنابر) . (خلائف في الإسلام في الشرك قادة * * بهم وإليهم فخر كل مفاخر) ، ويقول مغربيهم : (أسنا بني مروان كيف تبدلت * * بنا الحال أو دارت علينا الدوائر) . (إذا ولد المولود منا تهللت * * له الأرض واهتزت إليه المنابر) ، وقد نشأ في مدتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق وصار أثبت في صحائف الأيام من الأطواق في أعناق الحمام :

(وسار مسير الشمس في كل بلدة * * وهب هبوب الرياح في البر والبحر) .

وأخيرا :

أخي الطالب أختي الطالبة

حاول / و حاولي ، من خلال هذا النص المجتزأ من رسالة الشقندي أن تقاربه بشروط كتابة الرسائل التي ذكرناها آنفا ، لتدرك مدى تطور الكتابة لديه ، ولتتضح لديك صورة هذا الفن أكثر .

وختاما

تذكر .. تذكري :

أن ما أوردناه هنا إنما كان حديثا عن فن الترسل أو فن الرسائل النثرية ، وسيكون الحديث في المحاضرة القادمة بإذن الله تعالى عن فن نثري آخر لا يقل أهمية عنه ؛ إنه :

فن المقامات الأندلسية .

المحاضرة السابعة...

فن المقامات الأندلسية

التأثر بالمقامات المشرقية

لقد تأثر الأندلسيون بمقامات البديع الهمذاني وخلفه الحريري تأثراً جلياً ، إذ كان من الطبيعي أن تثير إنجازاتهما إعجاباً بين الأدباء ، وتخلق تياراً من المحاكاة في ميدان الكتابة عموماً وفي فن كتابة المقامات خصوصاً.

وبدخول الأندلس عهد ملوك الطوائف كانت مقامات الهمذاني ورسائله قد انتشرت انتشاراً واسعاً حتى غدا كثير من الأدباء يؤلفون في هذا الصنف من الأدب.

وفي مقدمة هؤلاء ابن شرف القيرواني الذي كتب مقامات تحدى بها الهمذاني ، وأبو محمد بن مالك القرطبي ؛ اللذان كانا يقيمان في المربة في عهد المعتصم ابن صمادح (٤٤٣-٥٤٨٣)

أثر مقامات الهمذاني ، والحريري

وما دمننا بصدد الكلام عن أثر الهمذاني وأسلوبه في الأندلس ، يمكننا القول : إن أثر مقاماته كان محصوراً في دائرة ضيقة إذا ما قورن بأثر رسائله التي لاقت ترحيباً حاراً من ابن شهيد الذي استخدمها نموذجاً لنثره الذي انغمس فيه بوصف مفصل لأشياء كثيرة كالماء والبراغيث والثعالب والحلويات ، كما لاقت ترحيباً من أبي المغيرة ابن حزم الذي ألف رسالة يحاكي بها إحدى رسائل البديع الهمذاني . وقد ظهرت مقامات الحريري في مطلع عهد المرابطين وسرعان ما تداولها الناس على نطاق واسع. ويخبرنا ابن الأبار : أن العديد من الأندلسيين سمعوا الحريري يبسط مقاماته في حديقته ببغداد ، ثم عادوا إلى الأندلس لينشروا ما سمعوا . وبعد موت الحريري تابع تلاميذه بدورهم بسط المقامات باعتبارهم معتمدين من قبل مشايخهم ، ودرس الأندلسيون المقامات أيام المرابطين والموحدين على أيدي هؤلاء وتلامذتهم . ولم يكتف الأندلسيون بدراسة المقامات ونقلها ؛ بل أنشؤوا تعليقات عليها أشهرها تعليق الشريشي .

أوائل الكتاب في فن المقامة الأندلسية

كان أول من كتب في هذا اللون الأدبي من الأندلسيين "ذو الوزارتين" أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال (٤٦٥-٥٤٠ هـ) وعلى الرغم من تأثره بالحريري ، كانت مقاماته تتصف بخصائص متميزة، سواء في الشكل أو في الأسلوب. ومن الأمثلة على ذلك مقامته التي يحاكي فيها الحريري محاكاة تامة حتى إنه سمى أبطال مقامته هذه باسمي بطلي الحريري ، أي (الحارث بن همام وأبي زيد السروجي).

كان المشهد في الريف ، حيث يصف ابن أبي الخصال ممثلاً شخص الحريري فرحة الريفيين بشؤبوب المطر الغزير عندما فاضت الأنهار وانتعشت الخضار. وفيما هو يتجول في الريف يلتقي حشداً من الناس تجمعوا حول بيت حيث كان يخاطبهم شيخ ببلاغة فائقة. فجمع له الناس مالاً وفيراً ، ورجاه الحارث أن يبني عنده في بيته قاصداً سرقة. ولكن غايته أحببت ، إذ تظاهر الشيخ بالنوم ، وعندما استيقظ الحارث لم يجد الشيخ. لقد انسل الشيخ من فراشه تاركاً قصاصة من الورق كتب عليها ثلاث قصائد. الأولى من عشرة أبيات والثانية من أربعة عشر بيتاً يبسط فيها الشيخ ما أصاب من الحب وما عاناه منه. أما الثالثة فمن تسعة عشر بيتاً يشكر فيها الريفيين على اللطف الذي غمروه فيه.

ثم يكتشف الحارث بن همام أن العجوز لم ينصرف عنه إلا ليذهب إلى الحانة حيث أنفق ماله كله ، ثم أودع السجن بسبب الديون التي ترتبت عليه لصاحب الحانة. وهنا يقدم ابن أبي الخصال وصفاً دقيقاً مفصلاً ورائعاً للحانة وزبائنها والعاملين فيها.

وجاء هذا الوصف على لسان الحارث بن همام عندما قدم الحانة وجال فيها بحثاً عن العجوز، وأخيراً قضى وقتاً ليس قصيراً يحاول إقناع صاحب الحانة أن يتيح له رؤية ذلك العجوز. ثم يقول الحارث: (وعلى غُرة فاجأناه) . ثم يجري حديث مطول بين الرجلين ، يطلب بعده الحارث من العجوز أن يخلد له اسمه بالشعر، فيضطر العجوز أن يقول فيه قصيدة من ثمانية عشر بيتاً.

إننا نجد من هذا العرض الموجز أن هذه المقامة تختلف عن مقامات الحريري من حيث الشكل، فهي أطول ومن حيث مادتها أيضاً؛ إذ هي لا تعالج حكاية واحدة خاصة فحسب، بل تحكي سلسلة من الأحداث يرتبط بعضها ببعض من خلال شخصية البطل، العجوز. وهي أشبه بعدة مقامات منفصلة تتضمن سلسلة من المعالم ، كصورة الريف والفلاحين، وبيوتهم ، وصورة الحانة واللقاء الأخير بين الشيخ والحارث. ومن الواضح أن غاية ابن أبي الخصال كانت إظهار براعته الفنية الفائقة في التصوير الكلامي بجمعه مقامات عديدة في مقامة واحدة. ومن الجدير بالذكر أن ابن أبي الخصال قد قام بمحاولة أخرى في ميدان الكتابة بأسلوب المقامات، وإن لم يكن مديناً للحريري فيها بالقدر الذي كان في المقامة السابقة. ونقصد عمله الرائد في ذلك النمط من الرسائل الأدبية التي كتبها الأندلسيون عن طائر الزرزور. وكانت المقامات من هذا النوع تتسم بأسلوب المواعظ في أنها تُفتتح بالصلوات والأدعية والبركات، ثم تنتقل إلى وصف الزرزور وتعداد مآثره. ثم يقول الزرزور قصيدة في موضوع الكرم والल्प .

وكان ابن أبي الخصال يستخدم الزرزور ناطقاً باسمه ينبئ مستمعيه عن توبته ليكسب عطفهم ومالهم. والواقع أنه كان يقوم بدور بطل المقامة الذي يمزج الشعر بالثر ليعرض خبرته وتفوقه في كلا النوعين. ولقد قام ابن أبي الخصال بمحاولتين في هذا اللون من الأدب طعمهما بالأبيات الشعرية .

المقامة القرطبية

إن هذه المقامة التي عرفت بهذا الاسم عند الأندلسيين الذين عزوها إلى الفتح بن خاقان، تُشتهر بالفيلسوف العلامة والأديب ابن السيد البطليوسي وتقذف به. إلا أننا لا نستطيع الجزم بنسبة هذه المقامة إلى ابن خاقان الذي عرف عنه أنه كتب سيرة مرموقة في مدح ابن السيد ، وتتخذ حيكته شكل رحلة قام بها البطل علي بن هشام من أرض الشام إلى الأندلس ليكتشف الوضع الأدبي فيها. وتبدأ المقامة بالكلمات التالية:

((قال علي بن هشام : انطلقت من بلاد الشام إلى الأندلس لأجوب أقاليمها وأدرس البلدان وألتقي الأدباء والفقهاء وأتجنب أهل الخيال والريب)) ، ثم ينتقل إلى وصف رحلته ونزوله في بلنسية ، ويصف الأرض وأهلها وصفاً مفصلاً . ثم يأتي إلى صلب موضوع رحلته وهو السؤال عن البطليوسي ؛ ليتمكن من مهاجمته وشمته، والتقى أثناء استفساراته عن البطليوسي ((بفتى له لألاء ورواء، عمامته بين الرجال لواء، فرعه أفرع وجيده أتلع ، وأنفه ممطول وخلقه مجدول...)) ومع الفتى رفيق له يدعى ابن الطويل وآخر هو يوسف بن خليل وقعد إليهما فتناشداوا الأشعار. ثم سألهما ابن هشام عن البطليوسي فانبرى أحدهما للقف بحقه والتشهير به .

وانضم إليه الآخر واصفياً أفعال البطليوسي الشريرة ، وكاشفين جهله بالعلم والأدب ((يأتي المناكر في كل ناد

ويهيم في العمه في كل واد ، لا يرجي له إرعواء ، ولا يأسو جرحه دواء)) .

وتعرض لنا المقامة صورة مفصلة لحياة البطليوسي وخصوصاً حياته في بلنسية التي لجأ إليها بعد أن ورط نفسه عاطفياً مع ثلاثة شباب هم أبناء مواطنين قرطبيين متنفيين ؛ كما ترسم لنا صورة مقنعة لجانب الحياة المظلم في ذلك الزمن، وهو الجانب الذي مر ذكره في مصادر أندلسية أخرى مروراً متعجلاً. لقد أثارت هذه المقامة فتنة كبيرة في الحياة الأدبية بالأندلس بسبب المركز المرموق الذي كان يحتله البطليوسي. ومن الواضح أن كثيراً من أدباء الأندلس قد استأواوا استياء عميقاً وهبوا للرد على كاتب هذه المقامة. وكان أول من انتصر للبطليوسي الوزير العلامة أبو جعفر بن أحمد الذي كتب رسالة عنوانها "الانتصار في الرد على صاحب المقامة القرطبية". وجهد الكاتب نفسه في الدفاع عن البطليوسي ضد التهم التي ألصقت به :

ويرى أن على صاحب المقامة القرطبية أن يتبين مثالبه قبل أن يبين مثالب غيره ...

كما إن هناك رداً آخر على هذه المقامة هو رد أبي الحسن المرسي الذي كتب مقامة تعد مثلاً رائعاً للنثر الطنان والمفعم بالبلاغة والبيان. ويعد هذا العمل أقرب في شكله إلى الرسالة الأدبية منه إلى المقامة لافتقاره لأكثر معالم المقامة وضوحاً : تعقيدات الأسلوب ، والبطلين المألوفين.

قيمة المقامات الأندلسية الأدبية والجغرافية والتعليمية

لقد هباً هذا العمل وغيره مما كتب في الوقت ذاته الركن الأكبر الذي كان على المقامة أن تحتله في ميدان الأدب الأندلسي. ونتيجة لذلك يمكن القول أن المقامة الأندلسية الجديدة، مع كونها تنتمي فعلاً إلى هذا اللون الأدبي، تتسم بصفات مشتركة مع فن الرسالة، مما أدى إلى استعمالها لخدمة أغراض أدبية عديدة متنوعة. وهكذا استخدمه الأندلسيون في المدح والثناء والذم والغزل ووصف المدن.

وتعد مقامات عديدة من هذا النمط الجديد مصادر هامة لجغرافية الأندلس وشمال أفريقيا. وخير أمثلة على هذا النمط ما جاء في مقامات لسان الدين بن الخطيب العديدة والتي عرفت بـ ((معيار الاختبار في أحوال المعابد والديار)) .

كما استخدم الأندلسيون المقامة وسيطاً لوصف الإدارة العامة والعدالة، ومثال ذلك مقالة كتبها ابن الخطيب ذاته، عنوانها ((خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف)) .

واستخدمت المقامة كذلك لأغراض تعليمية وتربوية كما هو حال المقامة النخيلة للقاضي أبي الحسن النباهي المالقي (المتوفى في نهاية القرن الثامن الهجري) وقد استخدم المقامة وسيلة لتعليم الأدب والقواعد ليوفر على التلاميذ مشقة الرجوع إلى مؤلفات أكبر في هذه المواضيع.

المقامات اللزومية

ربما كانت المقامات اللزومية من أهم ما أنتج في الأندلس في ميدان هذا اللون الأدبي. ولقد كان أقدمها وأكثرها موثوقية : المقامات الخمسون التي ألفها أبو طاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي (المتوفى عام ٥٣٨هـ) في قرطبة إحدى مدن الأندلس (نتيجة لقراءة مؤلفات أبي محمد الحريري البصروي الأكبر) وقد وصل بها إلى ذروة الإتقان والكمال .

ومن الملحوظ أن المؤلف لم يعط كل مقامة عنواناً متميزاً كما فعل بديع الزمان والحريري . إذ كان بعضها يسمى باسم نوع السجع الذي يغلب عليها ، من ذلك : المقامة المثلثة ، والمقامة المرصعة ، والمدبجة . أما المقامات الأخر التي لها عناوين فهي : البحرية ، والنجومية ، والحمقاء ، ومقامة الشعراء ، ومقامة الدب ، والفرسية ، والحمامية ، والعنقاوية ، والأسدية . كما استخدم السرقسطي نمطاً خاصاً من السجع ، ورتب المقامات حسب النظام الأبجدي ، ولهذا السبب نراها تحمل أسماء حسب حرف القافية فيها، مثل "الهمزية" و"البائية" و"الجيمية"

و "الدالية" و"النونية"... الخ. أما بطلا هذه المقامات فهما : السائب بن تمام (ويعرف كذلك باسم أبي الغمر) ،

وأبو حبيب ، وهو عجوز ماكر من عُمان.

ويستعمل السرقسطي في مقاماته صيغة صارمة من السجع (أشد صارمة من سجع المعري) من غير أن يحدث انطباعاً لدى القارئ بالتكلف أو المبالغة.

ثم إن مقامات السرقسطي في غالبها يتجنب عادة الأسلوب المعقد والمبهم الذي يفضلُه الحريري ، إذ أن اختياره لكلماته وعباراته أقل تكلفاً ، وزخرفته البيانية أقل تنميقاً . ويبدو أنه نخل الأعمال الأدبية ، واحتفظ لنفسه بالصور البيانية الأكثر جمالاً وسحرًا.

ولهذه المقامات قيمة أدبية كبرى تجلت في احتوائها على كثير من الملامح الاجتماعية والتاريخية والجغرافية والنقدية ؛ مما يجعلها في مصاف المصادر الأندلسية .

تذكر .. تذكري ..

أن ما ذكرناه إنما كان حديثاً مفصلاً عن شيء من ملامح المقامات الأندلسية ، أما حديثنا في المحاضرة الثامنة بإذن الله فسيكون عن :

فن الخطابة ، وفن المناظرة

المحاضرة الحادية عشرة...

الشاعر

ابن خفاجة الأندلسي

اسمه ومولده وموطنه :

إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي الشاعر ، ولد في جزيرة شقر عام ٤٥٠ هـ من أعمال بلنسية إحدى عواصم الأندلس ، وعاش ثلاثاً وثمانين سنة ؛ حيث توفي سنة ٥٣٣ هـ .

ذكره ابن بسام في الذخيرة وأثنى عليه وقال : ((كان مقيماً بشرق الأندلس ولم يتعرض لاستمache ملوكها مع تهافتهم على أهل الأدب)) ، وله ديوان شعر قد أحسن فيه كل الإحسان ، كما إن له نثراً جيداً .

شاعريته ، وأهم أغراض شعره :

يعد ابن خفاجة أديب الأندلس وشاعرها بدليل ما نعته به المقرئ في كتابة نفع الطبيب . وكان رقيق الشعر أنيق الألفاظ . وهو ممن أجاد الاستعارة كقوله من أبيات :

جاذبته فضل العنان وقد طغا فانصاع ينساب انسياب الأرقم

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

في خصر غور بالأراك موشح أو رأس طود بالغمام معمم
أو نحر نهر بالحباب مقلد أو وجه خرق بالضريب ملثم
حتى تهادى الغصن ياطر متنه طرباً لشدو الطائر المترنم

ويُعدُّ الشاعر ابن خفاجة الأندلسي من أشهر الشعراء في وصف الطبيعة إذ وقف نفسه وشعره على التغني بالطبيعة لا يتجاوزها وجعل أغراض شعره الأخرى تدور حولها فوصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين وقد تفرد ابن خفاجة بالوصف والتصريف فيه، ولا سيما وصف الأنهار والأزهار، والبساتين والرياض والرياحين، فكان أُوحد الناس فيها حتى لقبه أهل الأندلس بالجنان، أي البساتين، ولقبه الشقندي بصنوبري الأندلس. وهو القائل:

يا أهل أندلس لله دركمُ ماءً وظلُّ وأنهارُ وأشجارُ

ما جنة الخلدُ إلا في دياركمُ ولو تخيرت هذا كنت أختارُ

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تُدخل بعد الجنة النارُ

وهناك حقائق أولية ضرورية لفهم شخصية ابن خفاجة الشعرية من خلال موقفه العام ونظرتة إلى الحياة :

أولاً : لا بد من أن يلتفت دارس حياة ابن خفاجة إلى تلك الأخبار ذات الطابع الفريد في تصوير شخصيته ، ومنها أنه كان يغادر أحيانا منزله بجزيرة شقر وحيدا ، ويمضي حتى إذا صار بين جبلين هناك وقف يصيح " يا إبراهيم ، تموت ! " فيردد الصدى كلماته ، ثم يعيدها ويعود الصدى إلى ترديدها ويظل على هذه الحال حتى يخر مغشيا عليه وهذا يؤكد لنا موقفا في خوفه من الموت وفي إحساسه بالزمن.

ومن هذه المظاهر النفسية أنه كان يذهب في جزيرة شقر إلى بائع الفاكهة فيساومه على شراء شيء مما عنده فإذا سمى له البائع عددا أو وزناً لفاكهة معينة نقده ما طلبه على شرط أن ينتقي ما يريد به بيده ؛ أي لم يكن يرضى بشيء دون الانتقاء والاصطفاء . ولهذا فلا بد من أن يربط الدارس بين هذه الظاهرة وطبيعة شعره في مجموعه العام.

وأمر آخر نحسبه ذا دلالة بعيدة في وضعه النفسي ، هو أنه ظل عازبا لم يتزوج قط ويمكن أن تربط هذه الحقيقة بموقف دقيق ورد في إحدى قصائده ، وذلك هو تغزله في أمة له صغيرة تسمى عفراء ، وفيها يتحسر أنه أصبح ابن إحدى وخمسين سنة ، وبينه وبين أن تكبر عفراء مدة من الزمن .

ثانياً : إن ابن خفاجة نشأ في عهد ملوك الطوائف فلم يمدح أحداً منهم وليس له في ديوانه إلا قصيدة واحدة في المعتصم ابن صمادح ، حتى إذا أقبل عهد المرابطين وجدنا شعره يستفيض في مدحهم وتذكيرهم بأمره ، وفي هذا نجد في حياته مرحلتين : أولاهما : توفره على المجون وحياء اللهو وتتسم هذه الفترة بالابتعاد عن ذوي السلطان ، والثانية : فترة توبته ونسكه ، وهذه تتسم بشيء من إحساسه بالضعف البشري وتعلقه برجال الدولة ، دون إراقة لماء الوجه في

سؤال شيء من جهتهم .

ولقد أقر ابن خفاجة بأن في حياته مرحلة من التوقف التام عن قول الشعر ؛ حين قال : ” ولما انصدع ليل الشباب عن فجره ، ورغب المشيب بنا عن هجره ، نزلت عنه (أي الشعر) مركبا ، وتبدلت به مذهبا ، فأضربت عنه برهة من الزمان الطويلة ، اضطراب راغب عنه زاهد فيه ، حتى كأنني ما سامرته جليسا ، يشافهني أنيسا ، ولا سايرته أليفا ، يفاوهني لطيفا ” .

ثالثا: إن ابن خفاجة نفسه كان يدرك شدة إلحاحه على الطبيعة واستغلاله لها في شعره ، وكان هو نفسه حائرا في تفسير هذه النزعة المتمكنة ، فهو يقول عن نفسه مستعملا ضمير الغائب : ((كثارت هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ورنه طائر ما هو إلا لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة ، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره . حتى غلب عليه حب ذلك الأمر ، فصار قوله عن كلف لا تكلف ، مع اقتناع قام مقام اتساع ، فأغناه عن تبذل وانتجاع)) .

فهو يرجح أن يكون حب الطبيعة لديه أمرا في تركيبه وجبلته ، فإن لم يكن كذلك فهو أثر من آثار البيئة الطبيعية الجميلة التي نشأ فيها. ثم اختار هذا المذهب مستغنيا عن التكسب بالشعر منقطعا إلى رؤية الجمال في الطبيعة والتأمل فيه .

ابن خفاجة شاعر الطبيعة

فالتبيعة إذن عند ابن خفاجة هي كل شيء ، فقد شغف بها ومزج روحه بروحها وبادلها الشعور والإحساس ، وكان يتحدث إليها كما يتحدث إلى شخص ذي حياة وحركة

ولكن لو صدقنا التقدير نقضنا على أنفسنا القول بأنه شاعر الطبيعة وقلنا إنه كان يرى الطبيعة في إطار الفناء ، وضمن إحساسه بالتغير ، وحسّه الدقيق بالصراع بينه وبين الزمن ، وصراعه مع الهلع أو هاجس الموت ، أو الخوف ؛ فنجده يتقن في وصف الطبيعة والأشياء من حوله وصفاً يبلغ حد الإعجاز ، ويتقن في استحضار الصور والألغاز والتراكيب من مخيلته حتى يكاد السامع يظن أنه بلغ في وصفه حد تصوير الأشياء بأبهى صورة وأجمل تركيب .

فهو يرجح كما ذكرنا سابقا : أن يكون حب الطبيعة لديه أمراً في تركيبه وجبلته ، فإن لم يكن كذلك فهو أثر من آثار البيئة الطبيعية الجميلة التي نشأ فيها. متناسياً حالته النفسية ، أو لا يريد ذكرها وتأثيرها على إبداعه وإتقانه في وصف الجمال.

نماذج من شعر ابن خفاجة في وصف الطبيعة :

ونستعرض هنا بعضاً من قصائده في الطبيعة ؛ كقصيدته في وصف الجبل يقول فيها :

ملتقى طلاب وطالبات جامعة الملك فيصل www.ckfu.org

وأرعن طمّاح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب

يسدّ مهبّ الريح عن كلّ وجهة ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب

وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مطرّق في العواقب

فهذه صورة الجبل الذي يمثل الطموح والارتفاع والاعتراض والوقار الصامت الذي يشبه إطراق المتأمل ، ثم يأخذ هذا الصامت في سرد ما مرّ به من مشاهد ، فهو شخص آخر إزاء الشاعر يحدثه :

وقال : ألا كم كنت ملجأ فاتك وموطن أوّاه تبتّل تائب

وكم مرّ بي من مدلج ومؤوب وقال بظليّ من مطي وراكب

ولاطم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البحار جوانبي

فحتى متى أبقي ويطعن صاحب أودع منه راحلاً غير آيب

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا فمن طالع أخرى الليالي وغارب

فرحماك يا مولاي دعوة ضارع يمدّ إلى نعماك راحة راغب

فأسمعني من وعظه كلّ عبرة يترجمها عنه لسان التجارب

فسلّي بما أبكى وسرّي بما شجى وكان على ليل السرى خير صاحب

وقلت وقد نكبت عنه لطيفة : سلام فإننا من مقيم وذاهب

نلاحظ في المقطع السابق : أن إنسانية الجبل تتزايد تدريجاً في القصيدة ، فإذا هو يمثل صورة أخرى من وقفة الشاعر نفسه ، أو هو الشاعر

نفسه ، وهو لا يعبر عن طول الصمود ولذة الخلود ، وإنما يعبر عن استنقاله للحياة ، ووحدته بعد ذهاب إخوانه ، وكان بذلك يعبر عن (قيمة الموت) أي : يهون وقعه على نفس الشاعر التي تفرق وتهلع من الموت ، وتحاول الهرب من شبحه المخيف ، وارتاح الشاعر حين بكى ، ووجد في أخيه أو صنوه الجبل عزاءً وودعه وهو أقوى نفساً على مواجهة مصيره .

ومثل ذلك قصيدته في القمر فقد أثارتها في نفسه غربته ، فجعل يتأمل هذه الدورة التي تعترى القمر بالنقصان والكمال ، والاختفاء والظهور

، وحفره ذلك إلى مناجاة من (خلا بنفسه يفكر ، ونظر نظر الموقع يعتبر) ، ونسب هذه المناجاة إلى القمر نفسه فقال :

لقد أصخت إلى نجواك من قمر وبت أدلج بين الوعي والنظر

ولكن القمر ظل صامتاً على خلاف الجبل الذي وجد فرصته في السرد والحديث ، فاستمد الشاعر في هذه المرة عظة من الصمت :

وإن صمتٌ ففي مراكٍ لي عظة قد أفصحتُ ليَ عنها ألسن العبر
تمر من ناقصٍ حَوْرًا ، ومكتملٍ كَوْرًا ، ومن مُرتقٍ طورًا ، ومنحدر
والناس من معرضٍ يلهى وملتفتٍ يرعى ، ومن ذاهلٍ ينسى ، ومدكر
تلهو بساحات أقوام تحدّثنا وقد مضوا فقضوا ، إنا على الأثر
فإن بكيت وقد يبكي الجليد فعن شجو يفجر عين الماء في الحجر

تذكر .. تذكري ..

أن ما ذكرناه كان حديثاً عن شاعر الوصف والطبيعة ابن خفاجة الأندلسي ، وأما ما سنتناوله بإذن الله في المحاضرة الثانية عشرة ؛ فسوف يكون
حول :

أعلام النثر الأندلسي

المحاضرة الثانية عشرة...

من أعلام النثر الأندلسي

أولاً : ابن زيدون ، ورسالته الجديدة

أولاً : ابن زيدون

اتسم النثر عند ابن زيدون بجمال الصياغة ، وكثرة الصور والأخيلة ، والاعتماد على الموسيقى ، ودقة انتقاء الألفاظ حتى أشبه نثره شعره
في صياغته وموسيقاه ، وقد وصف ابن بسام في كتابه الذخيرة رسائله ((بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور)) .

وعلى الرغم من جودة نثر ابن زيدون ؛ فإنه لم يصل إلينا من آثاره النثرية إلا بعض رسائله الأدبية، ومنها :

الرسالة الهزلية : التي كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي إلى منافسه عليها ابن عبدوس وقد حمل عليه فيها ، وأوجعه سخرية وتهكماً
، وتتسم هذه الرسالة بالنقد اللاذع والسخرية المريرة ، وتعتمد على الأسلوب التهكمي المثير للضحك ، كما تحمل عاطفة قوية عنيفة من الشاعر
المتبانية: من الغيرة والبغض والحب، والحقد، وتدل على عمق ثقافة ابن زيدون وسعة اطلاعه.

وقد شرحها جمال الدين بن نباتة المصري في كتابه : "سرح العيون" ، كما شرحها "محمد بن البنا المصري" في كتابه : "العيون".

الرسالة الجديدة : وقد كتبها الشاعر في سجنه في أخريات أيامه ، يستعطف فيها الأمير

"أبا الحزم" ويستدر عفوه ورحمته ، وهي أيضاً تشتمل على كثير من الاقتباسات والأحداث والأسماء .

ومع أن الغرض من رسالته كان استعطاف الأمير إلا أن شخصية "ابن زيدون" القوية المتعالية تغلب عليه ، فإذا به يدلّ على الأمير بما يشبه المنّ عليه ، ويأخذ العتب مبلغ الشطط فيهدد الأمير باللجوء إلى خصومه .

ولكن الرسالة - مع ذلك - تنبض بالعاطفة القوية وتحرك المشاعر في القلوب ، وتثير الأشجان في النفوس .

وقد شرحها "صلاح الدين الصفدي" في كتابه : "تمام المتون" ، و"عبد القادر البغدادي" في كتابه : "مختصر تمام المتون" .

وإلى جانب إلى هاتين الرسالتين فهناك رسالة الاستعطاف التي كتبها الشاعر بعد فراره من سجنه وعودته من "إشبيلية" إلى "قرطبة" مستخفياً ينشد الأمان ، ويستشفع بأستاذه "أبي بكر مسلم بن أحمد" عند الأمير .

وهذه الرسالة تعد أقوى رسائل "ابن زيدون" جميعاً من الناحية الفنية ، وتمثل نضجاً ملحوظاً وخبرة كبيرة ودراية فائقة بأساليب الكتابة ، وبراعة وإتقان في مجال الكتابة النثرية .

ولابن زيدون كتاب في تاريخ بني أمية سماه "التبيين" وقد ضاع الكتاب ، ولم تبق منه إلا مقطوعتان ، حفظهما لنا "المقري" في كتابه الكبير : "نفع الطيب" .

نص الرسالة الجديدة لابن زيدون

كتب ابن زيدون إلى أبي الحزم ابن جهور رئيس الجماعة بقرطبة بعد أن سجنه بتهمة اغتصاب أرض لأحد مواليه :

((يامولاي وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، ومن أبقاه الله تعالى ماضي حد العزم ، واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة . إن سلبتني أعزك الله لباس إنعامك ، وعطلتني من حُلِّي إيناسك ، وأضمأتني إلى برود إسعافك ، نفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ؛ بعد أن نظر الأعمى إلى تأملي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك ، وأحسن الجمدُ بإستِحماذي إليك ؛ فلا غرو ، وقد يغص بالماء شاربهِ ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر من مأمِنه ، وتكون منيته المتمنى في أمِنِيته ، والحينُ قد يسبق حرص الحريص .
كلُّ المصائب قد تمر على الفتى وتَهونُ غيرَ شماتةِ الأعداءِ

واني لأتجلد ؛ وأري الشامتين أنني لريب الدهر لا أتضعع ؛ فأقول : هل أنا إلا يدُ أدامها

سوارها ، وجبينُ عض به إكليله ، ومشرقيُّ ألصقه بالأرضِ صاقله ،

وسمهرِيُّ عرضه على النارِ مثقفه ، وعبدُ ذهبه سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرةٌ ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابةٌ صيفٍ عن قليلٍ تنقشع . ولن يريبنى من سيدي أن أبطأ سببه ، أو تأخر غيرِ ضنينِ غناؤه ، فأبطأ الدلاءِ فيضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أحفلها ، وأنفعُ الحيا ما صادفَ جدبا ، وألذُّ الشراب ما أصابَ غليلا ، ومع اليومِ غدٌ ، ولكلِ أجلٍ كتابٌ ؛ له الحمدُ على اهتباله ، ولا عتبَ عليه في إغفاله .

فإن يَكُنِ الفِعْلُ الذي ساءَ واحداً فأفعاله اللاتي سَرْنَ أُلُوفُ

وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاؤل الذي لم يستغرقه تطوُّك ، والتحامل الذي لم يَفِ به احتمالك ؛

ولا أخلو من أن أكونَ بريئاً فأين العدل ! أو مُسيئاً فأين الفضل !؟

إلا يَكُنْ ذنبٌ فعدلكَ واسعٌ أو كانَ لي ذنبٌ ففضلُك أوسعُ

حَنَانِيكَ ! قد بَلَغَ السيلُ الزُّبْيَ ، ونالني ما حَسِبِي به وكَفَى . وما أراني إلا لو أني أُمرت بالسجود لآدمَ فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح : (اركب مَعَنَا) ، فقلتُ : (سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعِصُنِي مِنَ الْمَاءِ) ، وأمرت ببناءِ صِرْحٍ لعلي أُطَلِّعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى ، وعكفتُ على العِجَلِ ، واعتديتُ في السبِّ ، وتَعَاطَيْتُ فَعَقَرْتُ ، وشربتُ مِنَ النَّهْرِ الذي ابْتُلِيَ بِهِ جُيُوشُ طالوت ، وَوَدَّتُ الْفَيْلَ لأبرهة ، وعاهدتُ قُرَيْشاً على ما في الصَّحِيفَةِ ، وتَأَوَلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ ، ونفرتُ إِلَى الْعَيْرِ بَدْرَ ، وانصرفتُ بُدِّلْتُ النَّاسَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وتخلفتُ عن صَلَاةِ الْعَصْرِ في بني قُرَيْظَةَ ، وَجُنْتُ بِالْإِفْكِ عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ ، وَأَنْفَعْتُ مِنْ إِمَارَةِ أُسَامَةَ ، وَرَعَمْتُ أَنْ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فِلْتَةً ، وَمِنْ أَدَلَّةِ الْقُرْآنِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، وَرَوَيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ، وَمَزَقْتُ الْأَرِيمَ الذي باركتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ الذي عُنوانُ السُّجُودِ به ، وبذلتُ لِقَطَامٍ :

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرَبَ عَلِيٌّ بِالْحُسَامِ الْمَسْمُومِ

وكتبتُ إلى عمر بنِ سعد : أن جَعَجِعَ بِالْحُسَيْنِ ، وتمثلتُ عندما بلغني من وقعةِ الحرةِ :

لَيْتَ أَشِيَاخِي بَدْرٍ عَلِمُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ

ورجمتُ الكعبةَ ، وصلبتُ العائِدُ عَلَى الثَّنِيَّةِ — لكان فيما جرى عليٌّ ما يحتملُ أن يسمى نكالاً ، ويدعى ولو عَلَى الْمَجَازِ عِقَاباً .

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَامِرِي تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا

فكيفَ ولا ذنبَ إلا نيميَّةً أهداها كاشحُ ، ونبأ جاءَ به فاسق ، وهم الهمازون المشاءون بئميم ،

والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً ، والسعاة الذين ذكرهم الأحنفُ بن قيس ، فقال :
ماظنُّك بقومِ الصدِّقِ محمودٍ إلا منهم !

حلقتُ فلم أتركْ لنفسِكِ ربيَّةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

... ولا أزمعتُ مع ضمانٍ تكلفتُ به الثقةَ عنك ، وعهدٍ أخذَه حُسْنُ الظنِّ عليك ؛ فميم عبتَ الجفاءَ بأزمتي ، وعاثَ العقوقُ في مواتي ،
وتمكنَ الضياعُ من رسائلي ! ولمَ ضاقتَ مذاهبي وأكدتَ مطالبِي ؟ وعلامَ رضيتُ من المركبِ بالتعليقِ ، بل من الغنيمةِ بالإيابِ ! وأني غلبني المغلبُ ،
وفخرَ عليَّ العاجزُ الضعيفُ ، ولطمتني غيرَ ذاتِ سوار ! ومالكَ لم تمنعَ مني قَبْلَ أن أفترسَ ، وتدركني ولما أمزق ؟ أم كيف لا تتضرمَ جَوانحُ
الأكفاءِ حسداً لي على الخُصوصِ بك ،

وتتقطعُ أنفاسُ النُظراءِ مُنافسةً في الكرامةِ عليك ، وقد زانني اسمُ خِدمك

وزهاني وسمُ نعمتك ، وأبليتُ البلاءَ الجميلَ في سِماطِك ، وقُمتُ المقامَ المحمودَ على سِباطِك .

ألسْتُ المُوالي فيكَ غرَّ قِصائِدِ هيَ الأنجمُ افتادَت مع الليلِ أنجمًا

ثناءً يُظنُّ الروضُ منه منورًا ضُحى ، ويُخالُ الوشي فيهِ مُنمَّمًا

وهل لَبِسَ الصِّباحُ إلا بُرداً طرزتُه بفضائلك ، وتفلَدتِ الجوزاءُ إلا عِقداً فصلتُه بماثرك ، واستملى الربيعُ إلا ثناءً ملأتُه من محاسنِك ، وبَثَ
المسكُ إلا حديثاً أذعتهُ في حامدِك ! وما يومَ حليمةَ بسر . وإن كنتُ لم أكسكُ سَلِيباً ، ولا حليمتك عطلاً ، ولا وسمتك غفلاً ؛ بل وجدتُ آخرًا
وجصاً فبنيت ، ومكانَ القولِ ذا سعةٍ فقلتُ : حاشا لك أن أعدَ من العاملةِ النَّاصيةَ ، وأكونَ كالدُّلةِ المنصوبةِ تُضيءُ للنَّاسِ وهي تحترقُ ! فلك المثلُ
الأعلى ، وهو بك - وبِي فيكَ - أولى . ولعمركَ ما جهلتُ أن صريحَ الرأيِ لأن أتحوَّلَ إذ بلغتني الشمسُ ، وأنا ببابي المنزلِ ، وأصغحُ عن المطامعِ
التي تُقطعُ أعناقَ الرجالِ ، فلا استوطيءَ العَجزِ ، ولا أطمئنُ إلى الغرورِ ؛ ومن الأمثالِ المضمومةِ : خامري أم عامر ؛ وإني مع المعرفةِ أن الجلا سبباً
، والثقلَةَ مُثلةً .

ومن يَغْتَرِبَ عن قَومِهِ لم يَزَلْ يَرَى مَصارِعَ مَظْلومٍ ومَجَرى ومَسحَباً

وتُدْفَنُ منه الصَّالِحَاتُ وإن يُسيءُ يَكُنْ ما أساءَ النَّارُ في رأسِ كَبكَبَا

وإني مع المعرفة بأن الجلاء سباء ، والنقلة مثلة ، لعارف بأن الأدب الوطن الذي لا يُخشى فراقه ، والخليط الذي لا يُتوقع زياله ، والنسيب الذي لا يُجفى ، والجمال الذي لا يخفى . ثم ما قرأ السعد للكواكب أبهى أثرا ، ولا أسنى خطرا ، من اقتران غني النفس به ، وانتظامها معه ؛ فإن الحائر لهما ، الضارب بسهم فيها وقليل ما هم أينما توجه ورد منهل ير ، وحط في جناب قبول ، وضوح قبل إنزال رحله ، وأعطى حكم الصبي على أهله .

فقبل له : أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيتٌ صالحٌ ومقبِلٌ

غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن إلى وطنه ، وحنين النجيب إلى عطنه ، والكريم لا يجفؤ أرضاً فيها قوابله ، ولا ينسى بلداً فيها مراعته قال الأول :

أحبُّ بلادَ الله ما بين منعجٍ إلى وسلَمَى أن يصوبَ سحابها

بلادٌ بها عَقَ الشبابُ تمايمي وأولُ أرضٍ مسَّ منجلي ترائبها

هذا إلى مُغالاتي لفقد جوارك ، ومُنافستي بلحظةٍ من قُربك ، واعتقادي أن الطمع في غيرك طبع ، والغنى من سواك عناءٌ وكلُّ الصيد في جوف الفراء ، والبذل منك أعور ، والعيوض صفاء .

وإذا نظرتُ إلى أميري زادني ضنناً به نظري إلى الأمراء

وفي كل شجرة نار ، واستجمد المرخ والعقار ، فما هذه البراءة ممن يتولاك ، والميل عن يميل عنك ! وهلا كان هواك فيمن هواه فيك ؟ ، ورضاك لمن رضاه لك ؟!

يا من يعزُّ علينا أن نُفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدمٌ

أعيدك ونفسي من أن أشيم خلِّبا ، وأستمطر جهاماً ، وأكدم في غير مكدّم ، وأشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ؛ فما أبست لك إلا لتدر ، وحركت لك الحوار إلا لتحن ، ونبهتك إلا لأنام ، وسريت إليك إلا لأحمد السرى لديك . وإنك إن شئت عقد أمر تيسر ، ومتى أعدرت في فك أسري لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة والنعمة ، والشفاعة زكاة للمروءة ، وفضل الجاه - تعود - به صدقة .

وإذا امرؤٌ أهدى إليك صبيعةً من جاهه فكأنها من ماله

لعلي أن ألقى العَصَا بذراك ، ويستقر بي النوى في ظلك ، وأستأنف التأدب بأديك والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجالاً لحظة من هذه الشكوى ، بصنعيةٍ تُصيبُ منها مكانَ المصنع ، وتستودعها أحفظُ مُستودع ، حسبما أنت خَلَقُ له ، وأنا منك حَرِيٌّ به ؛ وذلك بيده ، وهَيِّنْ عليه . ولما توالى غُرُرُ هذا النثر واتسقت دُرُرُه ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلُوَّائِه ، وجر ذيل خُيَلَائِه ، عارضه بالنظم مُباهياً ؛ بل كأيده مُداهياً ، حين أشفق أن يستعطفك استعطفه ، وتميلَ بنفسك أطفاه ، فاستحسن العائدةَ منه ، واعتد بالفائدة له ، فمازال يستكذُ الدَّهْنَ العليل ، والخطرَ الكليل ، حتى رَفَّ إليك عروساً مجلوةً في أثوابها ، منصوصةً بحليها وملابسها ، وهي :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمئى في هبوب ذاك النسيم
سَرنا عيشنا الرفيقُ الحواشي لو يوم السرور للمستديم
وَطَرٌ ما انقضى إلى أن تقضى زمنٌ ما ذمأه بالدميم
إذ ختام الرضا المسوغ مسكٌ ومزاج الوصال من تسنيم
وعريض الدلال غص جنى الصب وة نشوان من سلاف النعيم
طلما نافر الهوى منه عزٌ لم يطل عهدٌ جيده بالتميم
زار مستخفياً ، وهيات أن يخفى في سنا البدر في الظلام البهيم
فوشى الحلى إذ مشى ، وهفا الطيب ب إلى حُسنِ كاشحٍ بالنميم

إلى أن قال :

وثناء أرسلته سلوة الظا عن شوقه ولهو المقيم
وودادٌ يُغيرُ الدهر ما شا ، ويبقى بقاء عهد الكريم
فهو ريحانة الجليس ولا فح ر ، ومنه مزاج كأس النديم
لم تزل مُعياً على هفوة الجاني مُصيحاً إلى اعتذار المليم
ومتى نبدأ الصنعة يُولب لك تمام الخصال بالنتميم

ها كها أعزك الله يبسطها الأمل ، ويقيضها الخجل ، لها ذنب التقصير ، وحرمة الإخلاص ، فهب ذنباً لحرمة ، واشفع نعمةً بينعمة ؛ ليتأتى لك الإحسان من جهاته ، وتسلك إلى الفضل طرقاته ؛ إن شاء الله تعالى)).

المحاضرة الثالثة عشرة...

من أعلام النثر الأندلسي

ثانيا : ابن حزم ، وكتابه طوق الحمامة

شخصية ابن حزم :

ابن حزم هو أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولقّب بالقرطبي نسبة إلى موطن ولادته ونشأته ، كما يلَقَّب بالظاهري نسبة إلى المذهب الفقهي الذي اشتهر به .

ولد بن حزم في القصور يحوطه الثراء ، والترّف ، وتربّى بين حريم قصر أبيه ، ممّا أكسبه ثلاث أمور هامّة شكّلت شخصيته :

الأمر الأول : أن حياة الثّرّف ألهمته رقة المزاج ، ونعومة المشاعر، و المحافظة و الخلق الكريم .

الأمر الثاني : أنّ الرعاية الأنثوية الواسعة أكسبته خبرة بأحوال النساء وأسرار نفوسهن .

الأمر الثالث : أتاحت له الفرصة لعيش التجارب العاطفية ، وقصص الغرام ، كما اطّلع على عديد من أحوال العشاق ، فجعله يبحث عن فلسفة الحب منذ نعومة أظفاره .

من مؤلّفات ابن حزم :

قضى بن حزم حوالي ٧٠ سنة من عمره في تأليف كثير من الكتب ، وماوصل لنا هو قلة وإلا فإنّ الحكّام الحاقدين عليه أحرقوا كثيرا

من مؤلفاته :

– في الفقه والأصول ألف كتاب (الإبطال)

– في مناقشة أصول المذهب الشافعي كتاب (المحلّي) .

– في تاريخ الأديان ألف الكتاب المشهور (الفصل في الملل والأهواء والنحل) .

– في النّاس والحياة ألف يومياته المجموعة في كتاب (الأخلاق والسير في مداواة النفوس) .

– وقد ألف في كثير من علوم الحياة . .

– أما الأهم عندنا هو تأليفه كتاب (طوق الحمامة) ، والذي يعتبر الأفضل إطلاقا في مجال الأدب.

– نبذة مقتضبة حول كتاب طوق الحمامة :

– صُنّف كتاب بن حزم في هيئة رسالة ، رد بها على سائل بعث إليه من (مدينة المرية) يسأله أن يصنف رسالة في صفة الحب

ومعانيه وأسبابه وأعراضه . وقد جعل ابن حزم كتابه في ثلاثين باباً تتبّع فيها الحب في نشأته ، وتطوّره ، وأعراضه ودرجاته ، وأنواعه ، ومسعداته ، ومنغصاته .

- أَلّف ابن حزم هذا الكتاب وهو لم يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره ، وموضوع الكتاب الأساس يدور حول (فلسفة الحب) ، وتحدّث في جزئياته حول العاطفة الإنسانية ، واعتمد في منهجيّته وبحثه على :
 - الأولى : التجربة .
 - الثانية : الملاحظة .
 - الثالثة : التحليل النفسي .
 - الرابعة : استخلاص النتائج .

شخصية ابن حزم من خلال كتابه طوق الحمامة :

- في كتابه رؤى جريئة ، تقول ما تعتقد وتعبر عما تحس ، وكما عرفنا أيضاً أنّه غرق في الحبّ إلى أذنيه بسبب نشأته وسط النساء .
- كما إنّ ظروف الحياة التي عاشها متغرياً في فترة سابقة من حياته جعلته يعترض ؛ ليتذكر أيام مسرّاته ويستعرض ذكرياته .

النثر في طوق الحمامة :

يلحظ على كتابات ابن حزم - من خلال طوق الحمامة - مايلي :

- نثره مليئ بالصور البيانية البلاغية الجميلة ، كما لم يخلُ من المحسنات البديعية كالطباق والمقابلة .
- جاءت جملة قصيرة ، عفوية غير متكلفة ، ذات نغم موسيقي ، غاية في الدقة وإصابة المعنى .
- انعكست الثقافة العقلية والدينية على أسلوبه .
- لم يقع تحت تأثير طريقة بديع الزّمان الهمداني .

الشعر في كتاب طوق الحمامة :

- الشعر - لا ريب - عاطفة وما يتحدّث حوله الكاتب - الحب - قَمّة العاطفة ، ولذا نجد الكتاب قد ارتبط بشكل وثيق بالشعر .
- يتراوح عدد الأبيات في طوق الحمامة بين البيت الواحد والثمانية والثلاثين بيتاً .
- لم يتضمّن كتاب الطوق من غير أشعار ابن حزم إلاّ في ثمان حالات فقط .
- اشتمل كتاب طوق الحمامة على ١٧٩ قطعة بين قصيدة ومقطوعة .

- الشعر في طوق الحمامة متوسط الجودة انعكست عليه ثقافة ابن حزم الفلسفية واللغوية والفقهية .
- موضوعات الشعر في كتاب الطوق جاءت مكملته لنثره ، وبالتالي فقد تعددت أغراض الشعر بحسب ما يقتضيه الموضوع ، وغالبا ما كان يدور حول الجمال ، فقد تحدث عن : الحب والجمال ، والطبيعة ، والفخر ، والصدقة ، والمديح ، والحكمة والوعظ ، كما إن الشعر كان جليلاً أيضاً .

موازنة بين شعر ابن حزم ونثره في (طوق الحمامة) :

إذا وزنا بين الشعر والنثر في طوق الحمامة رجحت كفة النثر فنياً ، فالنثر بانث قوته من خلال خروجه عن القوالب الموروثة بشئ من صدق الأحاسيس والمشاعر .

في حين جاء الشعر تقليدياً محضاً ، متكلفاً في كثير من الأحيان . ويدعم ذلك قوله عن نفسه : (والشعراء يقولون ما لا يفعلون وإنما اقتفي أثرهم لأن الصنعة تلزمه ذلك) .

قيمة كتاب طوق الحمامة الفنية :

من الواضح لمن يقرأ الطوق أن نثر ابن حزم فيه يقف موقف المفارقة من شعره ، فهو أكثر شاعرية ، وأحفل بالحيوية ، وأقل حظاً من المحاكمات الذهنية ، ولا يتعدى هذا النثر ثلاثة طرائق ، تجيء أحياناً مجتمعة في الفصول الطويلة ، فينتقل القارئ فيما بينها نقلات مريحة ، وتلك الطرائق هي : (التقرير ، والخبر أو الحكاية ، والوصف الفني) . ويجمع بينها التكتيف المتعمد استجابة للقوة في طيبة الأسلوب وطلباً للتأثير ، وإن كانت الحكاية غالباً حظاً من ذلك ، ويليهما في الإكثار منه التقرير ثم ينفرد الوصف الفني بالمبالغة في التكتيف .

ويتراوح التقرير في حظه من التكتيف بين إقلال وإكثار. وقد نقارن هنا بين قوله في الطاعة : ((ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبيه ، وصرفه طباعه قسراً إلى طباع من يحبه ، وربما يكون المرء شرس الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القياد ، ماضي العزيمة ، حمي الأنف ، أبي الخسف ، فما هو إلا أن يبتسم بنسيم الحب ، ويتورط في غمره ، ويعوم في بحره ، فتعود الشراسة لياناً والصعوبة سهالة ، والمضاء كلاله ، والحمية استسلاماً)) .

فهنا يتدرج الأسلوب من الحديث عن الطاعة في جملتين إلى تصوير المحب في ست جمل إلى وصف الحالة عند الوقوع في الحب في ثلاث جمل إلى النتيجة في أربع .

وعند السؤال لماذا اختص تصوير المحب بهذا القدر ؛ نجد أن الجواب على ذلك هو : ميل ابن حزم إلى رسم " الشخصية " وهذا يتبين لنا إذا انتقلنا إلى تقرير آخر تحتل فيه الشخصية جميع الدورات التي مثلتها القطعة السابقة ، وذلك هو التقرير عن حال المساعد من الإخوان الذي يشترط فيه أن يكون " صديقاً مخلصاً " ، ((لطيف القول بسيط الطول ، حسن المأخذ ، دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم.. الخ)) ؛ ففي عملية التكتيف يحشد الكاتب ما يزيد على خمسين جملة في الشروط التي يجب أن تتوافر فيه .

أما الحكاية فإنها لا تتطلب تكثيفاً ؛ لأنها قائمة على الحركة ، بينما التقرير يقوم على بطة فكري ، من ذلك : ((كنت بين يدي أبي الفتح والدي رحمه الله ، وقد أمرني بكتاب أكتبه ، إذ لمحت عيني جارية كنت أكلف بها ، فلم أملك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها ، وبهت أبي ، وظن أنه عرض لي عارض ، ثم راجعني عقلي ، فمسحت وجهي ، ثم عدت ، واعتذرت بأنه غلبني رعاف)) . فأنت ترى أن الاسترسال هنا - على الطبيعة - هو الأغلب وكل جملة في القطعة تنقلنا نقلة جديدة إلى النهاية .

غير أن الحكاية نفسها قد تستدعي التكتيف لنفس السبب الذي ذكرناه في التقرير وهو تصوير الشخصية المحورية فيها : ((واني لأعرف من أهل قرطبة من أبناء الكتاب وجلة الخدمة من اسمه أحمد بن فتح : كنت أعهدده كثير التصاون ، من بغاة العلم وطلاب الأدب ، يبرُّ أصحابه في الانقباض ، ويفوقهم في السرعة ، لا ينظر إلا في حلقة فضل الخ)) ، ويمضي في هذا " التشخيص " المكثف وغايته من ذلك إبراز المفارقة القائمة بين حال التصاون التي كان عليها وحال التبذل التي صار إليها (وهذه الثانية أيضاً تقوم على مماثلة في التكتيف) ومن الخير أن نتنبه إلى أن هذه الحكاية ليست كالأولى لأنه ليس فيها إلا خبر عن فتى تغيرت حاله .

وأما الوصف الفني فنكتفي بأن نميز منه :

- ١ - وصف دور بني حزم .
 - ٢ - وصف نزهة .
 - ٣ - وصف جارية ألفها في الصبا .
 - ٤ - وصف حال امرأة كانت مودتها في غير ذات الله ، (تشخيص محض في حالي المودة والبغضاء) وتشارك هذه المواقف جميعاً في العنصر الذاتي ، كما يمثل التكتيف فيها استغراقاً نفسياً يكفل من خلال التعبير عن الحال غياباً في جنباتها ، وتعتمد دون إسراف على صور شعرية ، كما أن الأخيرة من هذه القطع تعتمد على غاية النهاية فيما يشبه الأمثال ، وهذا النوع من النثر في الطوق ، أبرعه وأكثره مائية وجمالاً .
- المحاضرة الرابعة عشرة...

من أعلام النثر الأندلسي

ثالثاً : ابن شهيد ورسالة التوابع والزوابع

حياته ، وصلاته برجال عصره :

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، يعدو به نسبه إلى غطفان ، كان والده عبد الملك من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية مقرباً من المنصور بن أبي عامر الذي كان الأمر له .

ولد ابن شهيد في قرطبة ، وترعرع في حياة منعمة مرفهة نظراً لمكانة والده ، إلى جانب رعاية المنصور وتدليله له ، وظل ابن شهيد ينعم بالحياة المرفهة في ظل رعاية ملوك الدولة العامرية وأمرائها ، حتى بعد أن قام والده بالزهد في الدنيا ودعا أولاده للتقشف ، انتقل ابن

شهيد من رعاية المنصور ليحظى برعاية المظفر ولي العهد الذي ألبسه الحرير وأنعم عليه بالمال والملابس الجديدة ، وفي عهد المظفر ارتقى ابن الشهيد في المناصب حتى وصل إلى مرتبة الوزارة ، ومن بعد المظفر اتصل بأخيه عبد الرحمن الناصر.

نظراً للمكانة الأدبية والاجتماعية التي حظي بها ابن شهيد عند الملوك والأمراء كثر الحاسدون والحاقدون عليه ، والذين تنكروا له فبذلوا الجهود للانتقاص من شعره وأدبه ، وسعوا للوقيعة بينه وبين الأمراء ، فتكدرت حياته وزُجَّ به في السجن في فترة حكم الحموديين وعانى كثيراً من الظلم وأفرج عنه بعد ذلك . ومما قاله في استعطاف المعتلي ابن حمود :

إلى المعتلي عاليتُ همِّي طالِباً لكرَّته إنَّ الكَرِيمَ يَعودُ
هُمامٌ أراه جُودَهُ سُبُلَ العُلا وَعَلَّمَهُ الإِحسانَ كَيْفَ يَسودُ
نَفَى الدَّمِّ عَنْهُ أن طيَّ برُودِهِ عَفافٌ عَلَيَّ سِنِ الشَّبَابِ وجودُ

مؤلفاته :

أما شعره فلم يصلنا منه سوى قليل تفرق في بعض كتب الأدب مثل يتيمة الدهر للثعالبي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان .

وأما نثره : فلم يبق منه سوى فصول من رسالة التوابع والزوابع ؛ التي احتفظ بها ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ومن آثاره الأخرى نذكر كشف الدك وأثار الشك ، وحنوت عطار ، إلأى جانب شيء من الأشعار والرسائل المتفرقة في كتب الأدب.

رسالة التوابع والزوابع

حظي النثر في العصر الأندلسي بمكانة مميزة ربما تفوق فيها على الشعر ؛ حيث تنوعت فروعه وانضمت إليه القصة والتي تناولت الكثير من الأحداث والأبطال . وفي هذا قدم ابن شهيد (رسالة التوابع والزوابع) ؛ وهي رسالة أدبية نقدية أتت شكلاً جديداً للنثر.

وقد اختار ابن شهيد اسم التوابع والزوابع لكتابه دالاً على المحتوى ؛ فالتوابع جمع تابع وهو الجنى الذي يتبع الإنسان ويحبه ويرافقه ، أما الزوابع فهي جمع زوبعة وهي شيطان مارد أو رئيس من الجن.

وتعد رسالة التوابع والزوابع من أشهر مؤلفات ابن شهيد وأهمها ، وذلك لضمها آراءه الأدبية والنقدية ، واصطباغها بالطابع القصصي ، وبها كثير من الخيال ، فتدخل ضمن نواذر

التراث القصصي العربي ، وتتمتع بأسلوب فريد قلماً نجده في غيرها من الرسائل الأدبية ؛ فهي تعرض القضايا الأدبية والنقدية في إطار قصصي ، وذلك عبر مناظرات أدبية بين كل من ابن شهيد وتوابع بعض الشعراء والكتاب ونقاد الجن.

وفي التوابع والزوابع تخيّل المؤلف أنه قام برحلة إلى عالم الجن ، وهناك التقى بشياطين الشعراء والكتاب ، ووقعت بينهم مناظرات أدبية تفوّق فيها ابن شهيد على الجميع ، وأرضى غروره وذلك في إطار قصصي ، وفي رسالته التقى ابن شهيد بتوابع عدد من الشعراء والأدباء منهم امرئ القيس ، وطرفة بن العبد ، وقيس بن الخطيم ، وأبو تمام ، والبحثري ، وأبو نواس ، والمتنبي ، والجاحظ ، وغيرهم .

ورسالة ابن الشهيد : عبارة عن مدخل وأربع فصول :

فصل في توابع الشعراء ، وفصل في توابع الكتاب ، وفصل في نقاد الجن ، وفصل في حيوان الجن.

ومما قاله له تابع الجاحظ : ((إنك لخطيب وحائك لكلام مجيد ، لولا أنك مُغرئاً بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر)) فيجيبه ابن شهيد " ليس هذا - أعزك الله - مني جهلاً بأمر السجع ، وما في المماثلة والمقابلة من فضل ، ولكنني عدمت ببلدي فرسان الكلام ، ودُهِيت بغباوة أهل الزمان)) ؛ فيقول له الجنّي : ((فكيف كلامهم بينهم ؟)) ؛ فيقول : ((ليس لسببويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، إنما هي لكنة أعجمية ، يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط)) .

كان الهدف من وراء رسالة التوابع والزوابع : هو تعرض ابن حزم لخصومه وحسّاده ؛ حيث انبرى يناضلهم وينتقص أدبهم ، وبذلك يكون الطعن بأنداده هو الهدف الذي سعى إليه من خلال كتابه هذا ، إلى جانب الإشادة بأدبه ، وإضافة لذلك فإنه يتصور بأنه قد انتقل إلى وادي عبقر - وادي الجن للشعراء - ليلقي توابع الشعراء ، لأن كل شاعر كان له تابع من الجن ، فيسمعهم من شعره ، فينال منهم إجازة النظم والخطابة فأجازه :

امرؤ القيس ، وطرفة ، وأبو تمام ، والبحثري ، وأبو نواس ، وأبو الطيب ، ويضع على لسانهم بعض القول : كقول أبي نواس : ((هذا شيء لم نلهمه نحن ، وقول أبي الطيب المتنبي : ((إن امتد به طلق العمر ، فسوف ينفث بدرر)) ، وقال عبد الحميد الكاتب والجاحظ : ((اذهب فإنك شاعر وخطيب)) .

وكيفما سرنا في «رسالة التوابع والزوابع» نجد أن أبا عامر شديداً على خصومه ، شديد المباهاة بأدبه ونبوغه ، يناقش الشرق والغرب ، والقديم والمحدث .

وقد قسمت الرسالة «رسالة التوابع والزوابع» إلى مدخل وأربعة فصول :

المدخل : يتحدث فيه إلى « أبي بكر بن حزم » الذي كان صديقاً له ، فيذكر له كيف تعلم ، ونبض له عرق فهم ، بقليل من المطالعة ، ثم ينتقل إلى خبر حبيب له مات ، فأخذ في رثائه ، فإذا بجني اسمه « زهير بن نمير » يتصور له ، ويلقي إليه بنتحه الشعر ، رغبة في اصطفاؤه ، كما تصطفي التوابع خلانها ، فتتأكد بينهما الصحبة ، فأصبح كلما سدت بوجهه مذاهب الكلام ، يدعو تابعه بأبيات لُقنتها عنه ، فيمثّل له ويوحي إليه .

الفصل الأول: يسأل ابن شهيد صاحبه أن يأخذه إلى أرض التوابع ، فيطير به حتى ينزل وادي الأرواح ، فيزور صاحب امرئ القيس ، وطرفه ، ثم يتحول إلى توابع شعراء العباسيين كأبي تمام والمتنبي.. وفي زيارته هذه ، يساجل الشعراء ويعارضهم ويذاكرهم ، ويأخذ الإجازة منهم .

الفصل الثاني: يرغب ابن شهيد في لقاء الكتاب ، فيأخذه الجنّي « زهير » إلى الجاحظ ، وعبد الحميد الكاتب ، فيأخذان عليه شغفه بالسجع ، فيدافع عن نفسه ، فيجد من صاحب عبد الحميد الكاتب عنفاً ، فيقابله بالطعن على بداوة أسلوبه ، فيبتسم له ويباسطه .

الفصل الثالث: يحضر ابن شهيد وتابعه مجلس أدب من مجالس الجن ، فيدور الكلام على بيت للنابغة ، تداول الشعراء معناه من بعده ، ولم يلحقوه .

أما الفصل الرابع : فيسير ابن شهيد والجنى زهير في أرض التوابع والزوابع فيشرفان على نار لحمير الجن وبغالهم ، وقد وقع خلاف بينهما في شعرين لحمار وبغل من عشاقها .

موازنة بين رسالة التوابع والزوابع لابن حزم ، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري :

ومما تجدر الإشارة إليه : أن رسالة التوابع والزوابع هذه كتبت قبل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري بما يربو عن العشرين سنة ، كما ذهب غالب المحققين مثل البستاني ، وزكي مبارك..

مما يعني أن المعري كان متأثراً بفكرة الرحلة الخيالية مع توابع الشعراء ، ويتضح الاختلاف بينهما فيما يلي :

أولاً : أن ابن شهيد لم يحاور الشعراء مباشرة ولم يكلمهم ؛ بل تكلم مع توابعهم من الجن ، وحاورهم ؛ لينال الإجازة والإعتراف به شاعراً وخطيباً.

ثانياً : أن ابن شهيد حاور التوابع في واد ؛ بينما المعري حاور الشعراء في الجنة أو النار.

ثالثاً : أن ابن شهيد حاور توابع الكتاب أيضاً ، وهذا ما لم يكن موجوداً من قبل ، بحيث لم يذكر الموروث الأدبي العربي أن الكتاب لهم توابع من الجن ؛ بل المعروف أن التوابع للشعراء فقط .

رابعاً : لغة ابن شهيد لغة شاعر ، وكاتب نثر يبحث عن الاعتراف بمكانته الأدبية بين الشعراء والكتاب.

خامساً : لغة المعري لغة العالم ، وطرح الأفكار الفلسفية الغيبية.

تم بحمد الله (غزالة القرشي)